يوميات

يوليوس فوتشيك

تحت أعواد المشنقة



ترجمة: مصطفى عبود

تقديم: فخري كريم



تحت أعواد المشنقة

اسم المؤلف: يوليوس فوتشيك
Author: Julius Fučík
عنوان الكتاب: تحت أعواد المشنقة
Title: Reportáž psaná na oprátce
ترجمة: مصطفى عبود
Translated by: Mustafa Aboud
تقديم: فخري كريم
Presented by: Fakhri Karim
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: Majed Al-Majedy
الناشر: دار المدى
P.C.: Al-Mada
الطبعة الأولى: 1978
First Edition: 1978
الطبعة الأولى: 2019
Second Edition: 2019



دار المدى للإعلام والثقافة والفنون

بغداد: حي أبو نؤاس - محلية 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا - شارع ليون- بناية منصور - الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار

almadahouse@net.sy

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

يوليوس فوتشيك

تحت أعواد المشنقة

ترجمة: مصطفى عبود

تقديم: فخري كريم



مفهوم البطولة في زمن الإسلام السياسي!

«ما لم أكتبه في المقدمة الأولى»

صدر هذا الكتاب كمبادرة لمواجهة عسف نظام البعث الصدامي وتصفياته الجسدية التي طالت المئات من الشيوعيين والديمقراطيين تحت التعذيب وبالإعدامات والاغتيالات المنظّمة بوسائل ابتكرتها المنظمة السرية التي كان يقودها ويشرف عليها صدام حسين شخصياً، عشية انفراده بالسلطة بعد إزاحة أحمد حسن البكر عن رئاسة الجمهورية فيما يُشبه انقلاباً، إن لم يكن انقلاباً مبتكراً في سلسلة الانقلابات التي شهدها العالم العربي طوال الأربعينيات والخمسينيات وما بعد ذلك، وحتى يومنا هذا، وربما حتى «يوم الدين»، إن لم نشهد استنهاضاً شعبياً واعياً ومنظماً يقتلع جذور الاستبداد ويصفّي مظاهره.

كان الدكتاتور قد أصبح على ثقة بـ «اقتداره» على المضيّ في تصفية الحزب الشيوعي سياسياً أو بوسائل وأدوات الإبادة الجسدية الشاملة، بعد أن أجهض الثورة الكردية، وأفرغ البعث نفسه من إمكانية مقاومة مطامعه في فرض سلطته المطلقة، وجعل الحزب الشيوعي «مكشوفاً» أمام وسائل قمعه نتيجة نهج الحزب وسياسته المتخمة بقناعة واهمة بجديّة توجّه «البعث الجبهوي» وادعاءاته بالتخلّي عن السياسة الدموية التي انتهجها بعد انقلابه في 8 شباط 1963.

وفي خطوة تصعيدية بالغة القسوة والتعسّف المكشوف، أقدم صدام على إعدام كوكبة من الشيوعيين بزعم انضمامهم إلى التنظيم العسكري للحزب الشيوعي. ولم تكن تلك الخطوة سوى رسالة بالدم الزكي إلى قيادة الحزب، تدعوه للدخول في «خيمة البعث» أي التخلّي عن أُسس وركائز وجوده أو مواجهة التصفية.

انبثقت فكرة ترجمة الكتاب ونشره في فورة الأحزان والشعور العميق بالخيبة التي كانت تلازمني وأنا أتابع ما يتعرض له يومياً مئات الرفيقات والرفاق من ملاحقات واعتقالٍ وتعذيب لا نظير له، وتحت قهر التزام الصمت، بل وأحياناً كآبة الموقف بسبب التواطؤ الضمني، تنفيذاً لسياسة الحزب بـ «ليّ الحقائق» ومجافاتها للواقع حول تلك الأهوال التي تحاصر منظمات الحزب وأعضاءه، بإظهارها في إعلام الحزب كما لو أنها مجرد «حوادث» غامضة، تحتل مكاناً خجولاً في جريدة الحزب من دون أن تنال بطولة المناضل وبسالة

صموده ما يستحقه من نعي وتشييعٍ واستذكار.

كنّا بلا حولٍ ولا حيلة غير انتظار الغدر والموت المجّاني، أو الاستسلام والانحدار إلى مباءات البعث. لكنّ القسوة الحقيقية لم تكن تتمثل في ذلك، بل في ما كانت تصرّ عليه المجموعة القيادية المتنفذة وأركانها من تخديرٍ وإيهام بإمكانية الحفاظ على «الجبهة» التي ولدت أصلاً كسيحة تحمل مع ولادتها أسبابَ موتها، بل إنّ محاولاتها المخادعة ظلت تلاحقنا ونحن في الخارج ومَن هم في الداخل.بتلك الإمكانيّة الهزائمية، وتمثلت أوضح خديعة من تلك المحاولات في النشرة الداخلية «مناضل الحزب» التي أصدرها باقر إبراهيم، المشرف على الحزب آنذاك، ومن معه من سكرتارية اللجنة المركزية، وكانت «تبشّر» بضرورة حماية الجبهة «المنجز الوطني» واقترنت بدعوة الشيوعيين في الخارج للعودة والنضال في سبيل ذلك الهدف «النبيل»، وكنتُ بين مَنْ فضحوا وأجهزوا على تلك الدعوة المشبوهة، بإتلاف العدد وعدم تعميمه على منظمات الخارج.

واستجابةً للقرار الذي اتخذه اجتماع اللجنة المركزية بدعوة القياديين إلى المساهمة الفكرية والسياسية في رفع مستوى استعداد الشيوعيين للدفاع عن حزبهم والذود عن شرف انتمائهم وهم يواجهون حملات التصفية البعثية، لم أجد أفضل من كتاب فوتشيك الذي يجسّد تجربة بطولة القائد والصحفي الشيوعي التشيكوسلوفاكي يوليوس فوتشيك في معتقلات النازية وصموده المذهل أمام كل أساليب وأهوال التعذيب التي مورست ضده حتى لحظة إعدامه.

كلّفتُ الفقيد مصطفى عبود بإنجاز ترجمة جديدة للكتاب على عجل لنشرها على أوسع نطاق كمساهمة في تعميق وعي الشيوعيين بما ينتظرهم من دور في حملة البعث ومحاولاته بمختلف الوسائل كَسرِ إرادة الشيوعيين. وقد قام بالمهمة على أفضل وجه في وقت قياسي.

لم أجد متنفّساً للاحتقان والشعور بالمسؤولية في مواجهة الموقف أفضل من إفراغها في مقدمة الكتاب. أذكر أنني انكببتُ على كتابتها في ليلة واحدة باستخدام الآلة الكاتبة لأول مرة وبإصبع واحد من دون أن أتعرّف على الحروف الموزعة على لوحة مفاتيحها. ومع كل عبارة كنت أبكي بصمت وأحياناً أجهش بالبكاء أمام ذهول وتساؤل أخي وبنات وأبناء شقيقتي الذين كانوا يراقبونني وأنا أكتب. كان بكاء «الحالم العاجز» وليس اليائس كما كتبت في المقدمة، الملتاع المغلوب على أمره أمام عاصفة الموت المرعب الذي يأتي على حياة خيرة مناضلي شعبنا والحزب.

عند قراءة المقدمة من قبل الرفيق عبد الرزاق الصافي، شطب عبارة منها تصف الجلاد باعتباره مخاتلاً جباناً يعالج خوفه الداخلي بتعذيب ضحاياه، والعبارة كانت تؤشر لصدام ضمنياً، وقال لي وهو يحذفها :

إنّ العبارة المشطوبة هي شهادة موت محقق إذا قرأها صدام. ومع ذلك استغلَّ أول فرصة سنحت له بوضعي في زنزانة منفردة بحجّة لقائي والرفيق عادل حبة مع رئيس وزراء أفغانستان الذي كان يزور العراق بدعوة رسمية، كمحاولة لترويعي وتركيعي..!

لكنَّ تجربة الاعتقال في تلك الليلة الحزينة ملأتني بشجن محمومٍ وأسىً لا حدود لمدى تأثيره في نفسي وفي ضميرى، وبحقد جارف على الجلاد ونظامه وعزمٍ على مواصلة النشاط للاقتصاص منه وفي نفس الوقت النضال لتطهير الحزب من العناصر المسؤولة عن السياسة التي قادتنا إلى ما أحاط بنا من مجازر واستباحات، مهما سيكلفني ذلك.

لم أنم طوال تلك الليلة. بقيت أسمع الصراخ والأنين من المُعَذّبين الشيوعيين، مقترنة بشتائم الجلادين الذين كانوا يريدون النيل من عزيمتهم بكيل الشتائم لحزبهم والسخرية من موقفهم وصمودهم مرددين على مسامعهم: جبناء أغبياء، أنتم تتعذبون وقادتكم يسرحون ويمرحون ويتواطؤون مع قادتنا. موتوا وتعذبوا لعلّ الجبهة تنقذكم!

في الصباح مرّرَ الحرس من تحت باب الزنزانة جريدتي الثورة والجمهورية وهما تحملان صورة للفقيد الوزير الشيوعي عامر عبد الله وهو يبتسم بمناسبة ما، وعلمت لاحقاً أن المعذبين كانوا يحاولون كسر إرادة المعتقلين بإظهار مثل تلك الصورة في صحافة البعث وحتى طريق الشعب، كما لو أنها تعكس تخلّياً من قادة الحزب عنهم.

قاومتُ بكلّ قواي البكاء على أولئك الأبطال الذين يواجهون العذاب والموت ونحن لا نزال نرفع شعار «معاً صوب الاشتراكية»..! وما إن أُطلق سراحي ووصلت إلى البيت دخلتُ إلى غرفتي وأغلقتُ بابها وأجهشت في بكاءٍ ونشيج موصول وأنا أستعيد الصراخ والأنين الذي يأتيني من الغرف المحيطة بزنزانتي التي تضم خيرة أبناء شعبنا من المناضلين..!

في السنوات التالية ظللتُ أبكي في كلّ الليالي التي أستعيد فيها صورة تلك العذابات، وما كنت أواجهه من قهرٍ ومعاناة لما كان يعانيه الحزب من معاندة في الرضوخ لتغيير سياسته ونهجه وتقييمها وإعادة بنائه بما يعيد إليه العنفوان ويبرئ الآلام والأحزان ويضخّ الثقة في نفوس رفاقه ومناضليه.

مع صدور الكتاب نشرتُ في «طريق الشعب» التي كنت أدير تحريرها إعلانات عنه هي مقتطفات من أقوال فوتشيك ومن المقدمة، لكنّ سكرتارية اللجنة المركزية وجدت في ذلك استفزازاً للحليف، كما رأت أنها تنطوي على توصيف للصمود يثير الرعب في نفوس الشيوعيين، وقد يدفع بعضهم للانهيار حتى قبل مواجهة التعذيب!

ولم يخفِ بعضهم الإشارة إلى أنّ ما يردُ في المقدمة من توصيف للمنهارين والمعترفين وموقّعي البراءات في 8 شباط 63 وقبل ذلك، استفزازاً لهم وبعضهم كان في قوام اللجنة المركزية وعلى رأس المنظمات الحزبية القيادية، وطلبت الرسالة الموجهة من السكرتارية إلى هيئة تحرير «طريق الشعب» وقف نشر الإعلانات الدعائية للكتاب...

بيعَ من الكتاب خلال بضعة أسابيع خمسة وثلاثون ألف نسخة في أرجاء البلاد في عدة طبعات، وطُبِعت منه آلاف النسخ في بيروت وبلدان أخرى، وقال لي قادة أحزاب عربية إنهم حوّلوا المقدمة إلى منشور داخلي..!

كتب أحد الرفاق الذين كانوا بين المنتظرين في زنزانات الإعدام، ونُفِّذ الإعدام بهم لاحقاً، يقول: بعد قراءتي الكتاب أصبحت أكثر عزماً وإصراراً على الصمود وأنا أواجه حبل المشنقة وقلبي مفعمٌ بما مثّله الحزب لي وما تشرّبت به من قيم ومبادئ...

أوعز صدام بإمرار جثامين الشهداء من أمام مقرّ الحزب المركزي كرسالة إنذار وترويع....!

فخري كريم

تقديم

المفهوم البطولي للحياة!

في غمرة حياة عادية مشدودة إلى تطلّعات الشباب الرومانتيكية، توقفت لأول مرة في حياتي أتطلع من حولي بحِيرةٍ غامضة بحثاً عن مغزى حياة تستغرقنا فيها الهمومِ العابرة... ويومها وجدتُ طريقي إلى صفوف الحزب الشيوعي.

واحتضنتْني المعاني الجديدة لحياة مناضلٍ شيوعيّ، بما تنطوي عليه من آمال مشرقة، وما تنذر به من حرمانات وأهوال...

ولم يكن الانتماء يومذاك سوى اختيار الطريق...

وظلّ التعميد الثوريّ.

وظلّ الإيمان العميق.

ظلّ الثبات، سرّ الاستمرار. والبطولة، سرّ الانبهار بالحياة حدَّ الشهادة...

وتتواصل التطلُّعات الرومانتيكية الأولى من الفعل الجديد الواعد، وتختلط المفاهيم، ومن بين ركام تقاليد الحياة الماضية وعاداتها، وقيمها وهمومها تنمو وتنفتح تقاليد وعادات وقيم وهموم جديدة، تنمو وتتفتَّح حياةٌ شيوعيّة...

ومع التفتُّح والنمو، تنمو التساؤلات وتكبر...

ومن بين كل الأسئلة الكبيرة، تظلّ البطولة الثورية، البطولة حدَّ التضحية بالحياة، أكبرَ الأسئلة...

وأقرأ يوليوس فوتشيك أوَّل مرة فأهتزُّ من الأعماق، وتختلط تطلّعاتي الرومانتيكية باختياري الجديد، وتستقرُّ «همهماتي» على معنىً جديد... إنني مدين لفوتشيك بأثمن الأسرار، سرّ الأعماق البعيدة للثوريّ الإنسان، التي سَبَرَها بكلّ المحبة التي تليق بإنسان حقيقي. بثوريّ أصيل... ببطل شيوعي، حتى حينما يبحث في أعماق خائن عن أسباب سقوطه...!

وهأنذا أسمح لنفسي بقراءة جديدة، لمأثرة فوتشيك الأخيرة التي ودّع بها الحياة، الأوراق الأخيرة التي كتبها في زنزانة الموت بسجن بانكراك النازي، الأوراق التي كتب لها أن تعيش

وترى النور لترسم لأجيال من الشيوعيين والثوريين طريق النضال والبطولة.

إن قراءتي هذه، إنما هي محاولة للتعبير عن الوفاء والواجب، للمعنى الذي انطوت عليه أوراق فوتشيك الأخيرة «تحت أعواد المشنقة»...

الاختيار...

في عام 1921 انضمّ يوليوس فوتشيك إلى الحزب الشيوعي.

ولم يكن هذا الاختيار نقلة مفاجئة في حياة فوتشيك، فقد بدأ التفكير كمكافح ديمقراطيّ ثوريّ، يدفعه الإدراك إلى أنّ العالم «ليس ظمآناً للجمال والحقيقة فحسب، بل إن هناك في العالم أطفالاً يتضوّرون جوعاً وتطلق عليهم النيران وتقتل فيه النساء في الحوادث في المصانع».

وكان الصبي «يولا» ابن عامل المخرطة والعضو المحترف في مسرح شميخوف، وهو المصنع الذي يعمل فيه، مسرحياً «معجزة» أثار تمثيله، وهو في التاسعة من عمره، مشاعر عميقة وهو يندمج في دور «طفل عادل». وقد اكتسب يوليوس فوتشيك في نشاطه المسرحي الذي مثل فيه طيلة عشر سنوات، أدوار الأطفال، طلاقة لغته وطبيعيّتها، وهي التي ميّزت كتاباته، بالإضافة إلى خبرة «المناخ المسرحي» التي أعانته على إدراك أنه:

«لكي يكون لأي فكر حقيقي الأثر الضروري، ولكي يمكن إدراكه، يجب أن يقدَّم بلا شكليّات وكلمات جوفاء لا ضرورة لها».

ومكّنتْه خبرته المسرحية من إتقان فن العمل الثوريّ السرّي، فنّ التنكر والتخفي. وإيهام العدو وتضليله.

ويترعرع الصبي الموهوب في محيط أبيه البروليتاري، ويتطلع بعين مفكرة، ملتقطاً خيوط الألم التي تضيق الخناق على الأسرة البروليتارية الكبيرة المتزاحمة في مصانع شكودا. وتستيقظ في أعماقه مكامن الغضب الأولي.

ومع نحيب النساء وغضب العمال وبؤس أطفالهم، تتشكل ملامح وعيه، إحساسه بالعدل، وشجاعته، صدقه، حبه اللّامحدود للعمل، جوهر إنسانيّته وبطولته.

إن الصبيّ الواعي المفكّر يبدأ البحث عن مصادر تشكيل اتجاهاته الأخلاقية، والإبداعية فينكبّ على التراث الإنسانيّ والبطولي لشعبه، ويقرأ ما بين العام السادس عشر والعشرين من

عمره أكثر من مائتي مؤلَّف مولياً اهتماماً خاصّاً للكُتّاب الكلاسيكيّين في الأدب التشيكوسلوفاكي والأدب العالمي. كان وهو يقرأ بإمعان يعي أن قراءاته، إنما هي مصدر عمله اللاحق، وأداة فهم العالم المحيط به.

يقرأ فوتشيك أعمال تولستوي ورولان وفرانس وزولا وديكنز وتشرينشفسكي وماركس ولينين، إنه يقرأ ويفكر، ودون مقتطفات مما يقرأ، ويؤشِّر ملاحظاته الشخصية، فهو شديد الحرص على التفكير المستقل. ولكن فوتشيك لا تستهويه القراءة المتأمّلة، الحالمة، معزولاً عما يدور حوله. وإنما يتواصل وعي القراءة فيه، بوعي الفعل، وعي العمل الثوريّ. فينغمر في العمل، يشترك في المظاهرات، يحرّض الطلبة على المشاركة في تظاهرات الأول من أيار المجيد، يلتقي بالعمال ويستمع إليهم بانتباه وتعاطف ومحبّة... ويكتب... لقد اختار فوتشيك الصحافة، أداة عمله الثوريّ.
ويفكر...
ويتجاوز فكره، بفعله الثوريّ.
فيصبح شيوعياً،
ومحرّضاً من طراز بطولي،
ويصبح قائداً،
يصبح شهيداً،
ذلك أنه كان، منذ البدء، إنساناً...

«نحن الشيوعيين نكوّن الجيش الاستراتيجي البروليتاري العظيم – جيش الرفيق لينين. وما من شيء أعلى شرفاً من أن يكون المرء عضواً في هذا الجيش، وليس هناك ما هو أعلى مرتبةً من عضوية الحزب الذي كان مؤسِّسُه وزعيمُه لينين».

«إننا نحن الشيوعيين نحبّ الحياة، ولذلك فإننا لا نتردَّد في المخاطرة بحياتنا لكي نشعل ونمهّد الطريق نحو حياةٍ حقيقيّة حرّة كاملة ومرحة تستحقّ هذا الاسم. فليست الحياة الذليلة – في القيود والخضوع والاستغلال – حياة، إنما هي وجودٌ بائسٌ لا يليق بالإنسان. فهل يقبل الإنسان الجدير بهذا الاسم؛ هل يرضى الشيوعيّ بمثل هذا الوجود! هل ينحني للمستغلِّين وسائقي العبيد...

أبداً لن يضنّ الشيوعيّون بأيّة جهود أو تضحيات في كفاحهم من أجل حياة حقيقية وإنسانية حقاً».

«إننا نحن الشيوعيين نحب الإنسان - فكل ما هو إنسانيّ ليس غريباً عنا وإننا لنَعرف قيمة أقلّ المسرّات الإنسانية ونعرف كيف نقدّرها – ولذلك فإننا لا نتردّد مطلقاً في التضحية بمصالحنا الشخصية لكي نفوز بمكانٍ لائق تحت الشمس من أجل إنسان حرّ سليم مرح لا يتعرّض لإرهاب نظام الفوضى والاستغلال، سواء كان ذلك بسبب فظائع الحرب أو بسبب البطالة».

«إننا نحن الشيوعيّين نحبّ الحرية، ولذلك فإننا لا نتردّد لحظة واحدة في إخضاع أنفسنا طوعاً لنظام الحزب الدقيق. للنظام العسكري لجيش الرفيق لينين، وذلك لكي نحقّق الحرية الوحيدة الجديرة بهذا الاسم؛ حرية البشرية كلها. فحرية قليل من الأفراد – حرية السرقة لفريق من الناس، وحرية الموت جوعاً للآخرين – ليست حرية بل إنها على العكس إذلالٌ للجميع. فهل يرضى الشيوعيّ بمثل هذه الحالة، هل يكتفي بجانب شخصيّ من هذه الحرية؟ أبداً، ولذلك فإننا نحن الشيوعيِّين لا نضنّ بأية جهود أو تضحيات في الصراع من أجل حرية حقيقيّة، حرية تتزايد دائماً، حرية للجميع».

«إننا نحن الشيوعيين نحب العمل الخلّاق ونحبّ النمو البنّاء الذي يشكّل مستقبل البشرية، ولذلك فإننا لا نتردد لحظة واحدة في تدمير العقبات – والعقبات فقط – التي تعترض طريق القوى الخلّاقة العظيمة للإنسان... إن هناك الألوف، بل مئات الألوف من الموهوبين الذين يستطيعون مضاعفة الحضارة الإنسانية وتحسينَ التنظيم الإنسانيّ ودفعَ التكنولوجيا الإنسانية – ألوف، بل ومئات الألوف من أمثال هؤلاء الموهوبين تضيع مواهبهم هباء. لذلك فإن الشيوعيّ لا يضنّ بجهدٍ أو تضحيةٍ في النضال من أجل تحقيق نظامٍ تجدُ فيه القوى الخلاقةُ في البشرية كافّة، وكلُّ فردٍ فيها، مجالاً وتطويراً كاملاً».

«إننا نحن الشيوعيين نحبّ السلام ولذلك فنحن نكافح».

إن فوتشيك تشكيل رائع للمناضل الذي أراده في «وصاياه العشر الشيوعيّة» التي صاغها قبل ثلاثة أشهر من اعتقاله. إنه من معدن خالص، معدن إنساني!! المعدن الذي صِيغَ منه كلُّ الأبطال والشهداء منذ فجر التاريخ الإنسانيّ، إنه شقيق سبارتاكوس، وعمّار بن ياسر، وليبكنخت، وروزا لوكسمبورغ، وفهد، وشهدي عطية، وخِسرو روزبه، وألليندي، وزويا، وديمتروف. وتتجلّى في حياة فوتشيك مثلما في موته، بطولة الاستشهاد، فالفعل الإنسانيّ، مهما كان صغيراً، مهما كان جزئيّاً، ما دام يصبّ في مجرى التغيير التاريخي، ويتناسب مع التكوين الأخلاقي، مع وعي الإنسان الفاعل، إنما هو شكل للبطولة. وفي وقت ما، تزحف

الأفعال الصغيرة في مدٍّ جارف يغسل الأرض والزمن من عفونة القديم البالي. تتجاوز هذه الأفعال حدّ البطولة إلى الشهادة.

هكذا كان أدولف كولينسكي، سجّان «بانكراك» الذي وفّر لفوتشيك القلم والورقة وهرَّبَ أوراقَه الأخيرة! بزّة سجّان، قلم، قبضة من الأوراق، تتسلّل إلى زنزانة مسيَّجة بموتٍ يوميّ على مدى شهور، إنه فعل صغير، إلى الدرجة التي يخشى فيها فوتشيك عليه من النسيان! فيذكّر ببطولته، مثلما يذكّر ببطولة الآخرين في السجن، وفي غرفة 400، وكان حريصاً على الإيحاء بحدّ الشهادة في أفعالهم الثانوية. وهنا تتجلّى بطولة الاستشهاد في حياة فوتشيك.

إن الحياة عند فوتشيك تكتسب ملامحها من أصالتها، فالإنسان يولد باكياً، ولكنه سرعان ما ينساب مع خاطر الطفولة الأزليّ، الفرح، فيبتسم ويضحك، ثم يتعلّم اصطناع الابتسامة والضحك فيتشوّه!! ولكن فوتشيك يبتسم دامياً، يبتسم بإيماءة مشِعّة، وهو يودّع زوجتَه أمام الجلّادين في غرفة الموت وهي تنفي معرفتها بزوجها المدمَّى المسوَّر بالموت، وفاءً لعهدٍ نضاليّ...

هاكُم الفرحَ الإنسانيّ الأصيل. هاكُم الغزَل الآسر، خذوه من قلب فوتشيك وهو يحتضن حبيبته، زوجته، التي لم تخنْ قضيّتَهُما المشتركة. لم تضعفْ، لم تبِعْ سعادةَ نضالِهِما بحياةٍ ذليلة.

«الحبيبة. لقد برَّتْ بوعدها من أنها لنْ تعترفَ أبداً بأنّها تعرفني...»... «اقتادوها بعيداً. لقد ودعتها بألطف نظرةٍ قَدِرتُ عليها، ولكنْ لعلّها لم تكن نظرةً لطيفةً أبداً. أنّى لي أنْ أعلم!!».

إن هذه الأصالة في ممارسة خاطرة الطفولة الأزلي، الفرح، عند البطل وهو أمام الجلّاد، هي ما ميَّزتْ شخصية يوليوس فوتشيك منذ درج في أزقّة أحياء العمّال. ومع أنها كانت أصالة عفوية في عمر الطفولة والصبا، إلا أنها تبلورت وتماسكت مع تبلور وتماسك وعيه.

إن عشرات الدراسات عن حياة فوتشيك، كرست ذكراه كثوريّ أصيل، يؤشر لإنسان المستقبل، طفل موهوب، صبي واعٍ مفكِّر، صادق، شجاع، جريء، وَفِيٍّ عاشق. محبّ للعمل. وقبل كل شيء، محبّ للناس. وهو في هذا الحب يتجلّى إنسانياً إلى أبعد الحدود. ويتبدّى ذلك في وصفه لجلّاديه وسجّانيه. فهو حريص على كشف القوى التي قادتهم إلى مصائرهم، كشف الفوارق الجزئية في سلوك كل واحد منهم. ولم يكن فوتشيك هذا فحسب. إن إنسانيته لم تكن لتكتمل لو لم يكن متفائلاً، ضاحكاً، «إن الضحك ينطوي على قوة».

كان فوتشيك «يضحك في أسوأ ظروف الحياة لأنه كان يؤمن بصدق الشيوعية، ولم يكن يشكّ في اقتناعه بها». وقد كان هذا الإيمان مصدر فرحه الدائم، مصدر بطولته.

«ليس هناك عذرٌ للَّذين أدركوا الفكرة وتخلّوا عنها بعد ذلك. إنَّ من يعرف أينَ هو الشرّ لا يحقُّ له أنْ يُخطئ. ولا يجوز له أن يخون نفسه، لأنه سوف يخون الآخرين. وعندما يقرِّر المرءُ موقفَه مع أو ضد، ومتى تقرّر ذلك فعليه أنْ يقف وراء يقينه حتى النهاية».

لقد تذكرت وأنا أقرأ يوليوس فوتشيك، وأبحث في حياته عن سرّ البطولة ومغزاها العميق، تذكّرتُ حديثاً شجيّاً ناجاني به، هامساً، أحدُ قادةِ حزبِنا، عن حياة الثوريّ، عن معاناته وحرماناته، وإنّه لَيصعب علَيَّ أنْ أنسى كلماته عن البطولة.

«إن البطولة بالنسبة للثوريّ لا تتجسد فيما يستطيع التحدُّث به، التعبير عنه. وإنما تكمن البطولة في عشرات الأشياء الصغيرة، في المعاناة المطمورة في ضمير الثوريّ، في تلك الأشياء التي لا يسمح لها أن تفصح عن نفسها. في تلك الأشياء التي، حتى، قد تبدو سخيفة بالنسبة لحياة عادية...»!!

وكم هي مثل هذه الأشياء في حياة الثوريّ، كم هي التفاصيل العادية الصغيرة التي تلهب حياة الثوريّ وتعذّبه بصمت؟

وهنا تنطلق فكرة، أو ربما شرارة محرقة: تُرى متى يسقط البطل...؟؟ هل السقوط الثوريّ مثل ارتطامٍ بجدار، هكذا مرّة واحدة؟!

التآكل...

إن الثوريّ، مثل أيِّ كائنٍ إنسانيّ ينمو، وهو لا ينمو في الفراغ ولا يبدأ من اللّاشيء، بل يتفاعل في المجتمع ويتحوّل فيه، وحينما يبدِّل ولاءه ويتحوَّل إلى مُنتَمٍ ملتزمٍ بتيّار التاريخ، تيّار التقدم، يفقد شيئاً مما فيه، يفقد ولاءه للقيم القديمة. وهذه هي بداياتُ التحوّل كلّها. ولكنه لا يفقد جذورها الكامنة، ولا يفقد قوة العادة، يظل في مكان ما من أعماقه أسير بقاياها التي يظلّ يتعامل، في «المجتمع»، مع رموزها ومؤسَّساتها. وتبدأ المرحلة الحاسمة، مرحلة التعميد الثوريّ فيتحول الانتماء إلى وظيفة تبلور الوعي، تكامل تشكّله وتبدأ عملية الوعي بالنفاذ إلى الأعماق البعيدة، تتحوّل إلى إيمان، والإيمان حدٌّ للبطولة وللشهادة... «وإذا كان هناك ما يمكن التضحية به للقضية فإنه الحياة وليس الشرف». ولكن العمل الثوريّ يمكن أن يتحول في مجرى الصراع بين القديم، برموزه ومؤسساته، وبين الجديد

النامي، لدى هذا المناضل أو ذاك، إلى مجرد عادة، و«العادة» لا تصمد أمام الموت، وربما لا تصمد، بحكم التآكل حتى أمام حكِّه! لقد سقط في ظروف تاريخية متباينة في قسوتها. مناضلون مجربون، خبرتهم الحركة الثورية في محنٍ قاسية، ولكنهم انهاروا أمام «خراعة» نظام! لأن بعضهم كانوا مجرَّد منتمين والبعض الآخر لم يتعمَّد، تآكل داخلياً في مجرى الصراع الضّاري، لم يقاوم إغراءات القديم البالي، بحكم احتفاظ هذا القديم، على سطح المجتمع، بمظاهر السيادة، محمياً بسيف الجلّاد.

الانهيار... الخيانة

إن الانهيار كظاهرة، تقترن بالهجمات الإرهابية المباغتة، بالإرهاب الفاشي الذي، يلجأ إلى أسلوب التصفية الجسدية كأداة لتصفية الفكر، تصفية العقيدة، وأدواتها الثورية، أحزابها السياسية.

وقد شهد التاريخ الإنسانيّ أساليب وأشكالاً فظيعة في التصفيات الجسدية، وفي الحرب النفسية لخلق أجواء الانهيار العام أمام قوى التقدم الإنسانيّ، وتتوجّه مثل هذه الهجمات إلى قاعدة جماهيرية عريضة، وتستهدف خلق أوسع بلبلة فكرية، سياسية، مستخدمةً جوَّ الرعب العام، جوَّ الانكماش والانحسار المؤقَّت بين صفوف أولئك الذين لم يتعمَّدوا بَعدُ، لم يكتمل إيمانهم ووعيهم، لإيهامهم بأن «قضيتهم» ليست سوى سراب، سوى يقين زائف، زائل، ولكن حتى هذه الهجمات على كثافتها وبطشها لا يمكن أن تُضعفَ إيمانَ الثوريّ، بل إنها سرعان ما تفقد قدرتها الشمولية بحكم الاستمرار وبحكم استيقاظ مكامن الغضب الجماهيري، استيقاظ الوعي العام، فتتكيف الجماهير لمقاومتها.

وأخطر ما يواجه المناضل الثوريّ في مثل هذه الظروف، ظروف الانكسار العام، الإحساس بالعزلة، الانسحاب إلى الداخل وغياب الشعور بالتواصل مع الجماعة، مع الحزب. إن التآكل الداخلي في مثل هذه الحالة، يكتسب بعداً آخر. إنه يتكثَّف بفعل الاغتراب وينخرُ في أعماق المناضل فيحوِّله إلى مجرّد «ذات فردية» تنشد الخلاص، ولكن أيّ خلاص!! لقد ظلَلْتُ أتساءل مرّات عديدة إزاء كل حالة من حالات السقوط الكبيرة التي واجهتْ مناضلين أشدَّاء: تُرى أيّة محنةٍ هذه التي تدفع إنساناً مناضلاً اختار شرفَ النضال بمحض إرادته ووعيه واكتنزَ رصيداً من شرف هذا النضال زيَّنَ عقوداً من عمره. بل كلَّ عمره، ولم يخلِّف في هذا العمر مكاناً صالحاً للمتعة سوى الأكل وأحلام اليقظة! أيَّةُ محنةٍ تدفع به إلى الخيانة؟؟؟

وألتقي بفوتشيك في سجن بانكراك، زنزانة، أو كما يرغب هو أن يسميها «غرفة 400»،

فينزع مني حيرتي إلى الأبد، ويكشف لي ولك سرّ هذه المحنة، متمثلاً في سقوط «ميريك» المناضل الذي لم يرهب الرصاص وهو يقاتل في الجبهة الإسبانية، والذي لم تثنه التجربة «القاسية» في معسكر اعتقال بفرنسا، كيف وهن أمام عصا الجستابو وانهار لكي «ينقذ جلده»؟؟ «أي شجاعة مزيفة هذه التي تكفي حفنة عِصيّ لتمحوها...! شجاعة مزيَّفة كإيمانه».

ولكن كيف ينهار مثل هذا المناضل، كيف تحوّلت شجاعتُه «المجرَّبة» في ظروف الموت أيضاً إلى شجاعة زائفة؟؟

«لقد كان وهو وسط الآخرين، حين كان محاطاً بالرفاق الذين يفكّرون مثلَه، كان قويّاً لأنه كان يفكر بهم. أما الآن وهو مهزول، وحيد، يضغط عليه العدو بشدة فقد انهارت كلّ مقاومة لديه. لقد أضاع كلَّ شيء لأنه أخذ يفكِّر بنفسه وضحَّى برفاقه لينقذ جلده».

«لقد تحوَّل إلى جبان ومن جبان إلى... خائن...».

والخائن كائن متفسِّخ، يشمّ رائحة عفونته من الداخل، حتى حينما يبدو للآخرين أنه يشعر بالنظافة لأنه يكون قد تعلم المقارنة، ولأنه يتوهم الخلاص وهو يخون، وأحياناً يتوهم أنه يستطيع توظيف رصيد تطهُّره القديم، ولربّما يذهب إلى أبعد من ذلك، إنه يوظف مصادر معرفته فيفلسف خيانتَه! ولكنه يسقط مثل أيّة جثّة متعفِّنة فوق ركامٍ من الخيبة، قبل أنْ يتلمَّس طاقة لسانه على استعادة النطق بأبجديَّته الجديدة، إذ عليه أن يتعلم الولاء من جديد، فيرتطم بأول جدار، يرتطم بجلّاده! لقد تحوّل إلى كمٍّ مهمَل، فيثير اشمئزازَ جلّاده، بعد أن كان يثير في نفسه الخوف!! والجلّاد لا يعبث، ولكنه ينتقم من ضحيته، يستردّ منه حساب خوفه القديم بعد أن يكتشف ضحيّته، يكتشف فيه نفسه، مجرّد جبان! ويكون الأوان قد فات!

لقد تسنّى لي أن استمع إلى شهادات عددٍ ممن سقطوا، ولا بدّ لي أن ألمِّحَ إلى أنَّ بعض حالات السقوط تبحث لنفسها عن الرحمةً. ولست أدري كيف يمكن تمييزها بدقة، ربما تشبه بعض هذه الحالات القتل في لحظة لوثة، أو القتل الخطأ أو القتل بلا سابق تخطيط، القتل مع الندم!

إن بعضاً من هؤلاء تمرد على سقوطه، وتحدى جلّاديه، في لحظة اكتشاف الهاوية، ولكنه كان قد تحول في نظر هؤلاء الجلّادين إلى كيس للرماية!

الجبان لا يكتفي بسقوطه، بل يتحول إلى معسكر العدو، يتحول إلى أداة لتخريب الحزب، أداة لتخريب الحركة الثورية.

مات أغلبهم، وإن ظلّوا أحياء بأجسادهم... إذ تحوّلوا إلى «مجرّد أشكال».

«الجبان يخسر أكثر من حياته نفسها. فها هو قد ضاع وتخلّى عن الجيش المجيد وكسب احتقار أقذر الأعداء. وحتى وإن كان حيّاً، فإنه ما عاد حيّاً. لأنه قد طرد نفسه من الجماعة. لقد حاول أن يصلح شيئاً مما اقترفه ولكنه لم يحقّق أيَّ شيء بعد ذلك أبداً».

إن بعض المناضلين، وغالباً أولئك الذين يفتقرون إلى التجربة وكذلك الحالمون بالمدينة الفاضلة، يتعرّضون إلى نوبات من الجزع واليأس حينما تلتبس عليهم بعض قضايا النضال، أو يواجهون مواقف وتسلُّكات ومظاهر لا تنسجم مع تصوراتهم للعمل الثوريّ.

وأتذكّر هذا الحوار...

الزمان: عام 1960

المكان: مبنى جريدة اتحاد الشعب

يدخل شابّ بلغ سنّ الرشد توّاً، عيناه متورِّمتَان من البكاء... يغالبُ خجلَه، ويبدو عليه أنّه حالم، يتعثّر ويقف أمام الرفيق «القديم» وبعد أن يجلس يستسلم لنوبة بكاء.

- إنك تغسل ذنوب الآخرين ببكائك!

- ...

- لماذا أصبحتَ شيوعياً؟

- لأنه المستقبل.

- إذا استيقظت يوماً فوجدت نفسك في بلد بلا حزب، ماذا تفعل؟

- أبدأ.

- مع من؟

- مع العمال، مع الفلاحين، مع المثقّفين...

- وماذا تجد فيهم؟

- كل ما في المجتمع...

- وإذا لم تجد حولك أحداً؟

- أواصل...

- إذن، لا تبكِ... وواصلْ، لكن تذكّر باستمرار أنك أنتَ الحزب، وأنك سلكت الطريق باختيارك وبوعيكَ، وأنَّ الحزب كائن حي.

والتقيت هذا الرفيق مرات كثيرة فيما بعد... وقال إنه كان يبكي أحياناً ولكنه كان بكاء الحالم وليس اليائس...!

ملامح البطل...

بعد تعقد الوضع السياسي في البلاد، وازدياد الخطر على مناضلي الحزب، حمل رفيقٌ من اللجنة المركزية عرضاً لفوتشيك بالرحيل عن البلاد، تجنباً لخطر الوقوع في أيدي العدو، ولكن فوتشيك فضَّل أن يبقى في البلاد، ما دام مخيَّراً بين البقاء والرحيل. وفي هذا تجسيدٌ لفكرته أنَّ:

«البطل هو الرجل الذي يكون على استعداد في اللحظة الحاسمة للقيام بكل ما يجب عليه أن يفعله لمصلحة المجتمع».

ولم يكن فوتشيك يفكّر بالبطولة وهو يؤدّي واجباته من موقع مسؤوليته، وإنما كان يتصرف كإنسان أحبَّ الحياة، فاكتشف سِرَّها:

العمل!

والعمل خالق الإنسان، وأداة تغييره، وتغيير العالم من حوله، والحياة دون عمل لا مغزى لها.

وقد عمل يوليوس فوتشيك منذ صغره، عمل ممثلاً وربما اكتشف وهو يمثل كيف يمكن أن يتغير إنسان بقناع! ولكنه تغيير في الشكل، في السطح. ولكنه يكتشف فيما بعد، كيف يتغير الإنسان من الداخل.

وباكتشافه هذا تتأصّل فيه الرغبة في الحياة بشكل خلّاق. وينطلق في رحاب الحياة مناضلاً من أجل التغيير الكبير، تغيير العالم من حوله، لكي يصبح فيه فرح الطفولة الأزلي؛

الضحك... فرحاً دائماً للإنسان.

«إن النظام القائم يمارس الضغط على كلّ عضو في هذا العالم القائم ويعتصر كل ما هو إنسانيّ فيه».

ولأنه شديد الإيمان بضرورة هذا التغيير، وبالمستقبل الذي يبشّر به، يتفتح على الحياة بابتهاج كامل، بتفاؤل عميق، ويتشوّق فرحاً لكل فجر جديد، لأنه كان بشيراً بالاقتراب من المستقبل، ولأنه كان ينطوي على مسرة الاستمتاع بدفء الحياة، بالعمل فيها يوماً جديداً آخر...

«قد يكون البطل هو من يستطيع تركيز أبرز سمات أمّة معينة في نفسه وبحيث تكون لديه الشجاعة للتعبير عن هذه السماء تعبيراً صحيحاً في اللحظة التي تتطلب ذلك».

وليس للبطل إلا أن يكون شجاعاً، جريئاً، متحدّياً حتى الموت في سبيل «مصلحة المجتمع»، في سبيل تقدم البشرية. ولكن ما يجعل الإنسان عظيماً هو «الشيء الطبيعي العادي» الشيء الذي يميزه كإنسان.

وهكذا كان فوتشيك!

أذكر أن بطلاً من زماننا هذا طلب من جلّاده أن يخرج معاونيه، ليسرّه بشيء على انفراد. وحينما انفرد به طلب منه أن يتلف الملف الخاص بقضيّته (وكان يحوي أسراراً تتعلق بحياة آخرين)، وهمس في أذنه: «إنني أعدك بشرفي الثوريّ، إنك إنْ فعلت ذلك فسوف ننقذك في المستقبل!».

وقد أتلف الجلّاد الملف. وعندما سأله رفاقه فيما بعد، كيف وعد وهو في قبضة الموت!

ضحك بمرح وقال:

«حسناً. كنت سأوصي به الحزب!».

إن فوتشيك يفعل هكذا أيضاً مع جلّاديه! إنه يبعث الخوف في نفوسهم.

- «إذن فأنت تعتقد...؟».

- «أنت على حق. لن نستطيع الانتصار الآن...».

هكذا قال بيأس سميتونز السجان الألماني وهو يخرج من زنزانة فوتشيك!

لقد ظل فوتشيك يعمل بتفانٍ حتى آخر لحظة في حياته. وحينما كان يكتب آخر أوراقه في زنزانته، لم يكن يكتب لنفسه، بل كان منشغلاً في تزويد الحزب بكل ما يتعلق بالضربة التي وجّهت إلى قيادته ومن الذي كان يتحمّل المسؤولية في ذلك.

كان يعرض موقف رفاقه، وسجّانيه، ويستخلص من كل ذلك دروساً للعمل اللاحق للحزب.

إن إخلاصه لواجبه الحزبي، لمهمّته الثوريّة، وهو يواجه الموت، يلخّص أبرز فضائله، كبطلٍ ثوريّ، كإنسان...

إنه يولي أكبر اهتمام لأصغر التفاصيل، ما دام ذلك يخدم قضيّته.

إن الأعمال البطولية لا تكمن فقط في الاستشهاد، لا تكمن فقط في الأعمال الكبيرة، وإنما تكمن في الفضائل الصغيرة أيضاً، الصغيرة بحجمها، الجليلة بنتائجها. تلك الأعمال التي تجسّد البطولة الكامنة، البطولة غير المرئية التي ينهض بشرف إنجازها آلاف الأبطال المجهولين...

هذا هو الدرس الذي يقدمّه يوليوس فوتشيك للمناضلين الثوريّين، وهو يكتب شهادته الأخيرة.

أية عظمة أبلغ دلالة من موقف فوتشيك ومعاناته وهو يحلّل نتائج «ميريك» ويتعقب آثارها؟

إنه لا يفكر بمحنته وعذاباته اليومية على أيدي الجستابو، بل يتمزّق ألماً للضّربة التي أصابت الحزب على يد الخائن، إنه يفكر بالحزب.

«إن هذه الضربة كانت أعنف ضربة تلقَّيتُها هناك»، في قصر بيتشيك، «لقد انتظرتْ الموت، لا الخيانة».

«لقد سلَّمَ ميريك كلَّ شيء يتعلّق بالعمل بين المثقفين»... اعترفَ حتى «على ليدا تلك الفتاة الشجاعة الوفيّة التي كانت تحبّه»!

وليس أكثر إشراقاً في حياة المناضل الثوريّ، في حياة البطل، من التواضع. إن التواضع الثوريّ، التواضع في أداء الواجب مهما كان صغيراً، بعيداً عن الأضواء، إنما هو معْبَرٌ للعطاء الكبير...

إذ «ينبغي للثوريّ الحقيقي» (كما يؤكد لينين) «أن يؤدي واجبه كذلك في العمل اليوميّ،

العاديّ، المملّ، غير الملحوظ بين الجماهير، مهما بلغ من الصعوبة والمشقّة. فإن هذا العمل لا يذهب عبثاً أبداً».

وكان فوتشيك مثالاً للتواضع الثوريّ. كان يزهو بعمل رفاقه، يبتهج بتفتح مواهبهم، يضع نفسه في المؤخرة حينما يتعلق الأمر بمن عمل أفضل للحزب! إن الأشياء الثمينة لا تلمع، وإنما تبهر!

تأمّلوا فوتشيك! كيف يقدّم تقريرَه للحزب عن عمل اللجنة المركزية الأخير، كيف يصف رفيقيه الآخرَين ويقيم نشاطهما، كيف يؤشِّر لبطولتهما... وكيف يصف أُخوَّتهم! أيّة أخوّة هي أكثر عمقاً، وأكثر فخراً ومدعاة للبهجة، من أخوّة النضال والعمل الثوريّ المشترك!

إن فوتشيك تمثَّل بعمقٍ مغزى تأكيد لينين التحريضيّ، على تمجيد عمل آلاف الثوريين المجهولين، على تمجيد عمل المناضل حينما يجبره العدو على الاختفاء:

«نعم نحن تحت الأرض، ولكننا لسنا مدفونين كالموتى، وإنما نحن كالتَّقاوى النابتة التي تطرح محصولاً اشتراكياً سوف ينتشر في أرجاء العالم تحت شمس الربيع...!».

كان فوتشيك، المحرض الباسل، وهو يتمثّل وصية لينين، يتذكر هؤلاء الأبطال المجهولين، فيكتب في أوراقه الأخيرة:

«... سيأتي وقت يكون فيه هذا الحاضر ذكرى، وسيتحدث الناس عن عصر عظيم، وعن أبطال مجهولين صنعوا التاريخ، وليكن معلوماً أنهم ما كانوا أبطالاً مجهولين، وأنهم بشر لهم أسماءٌ وقسماتٌ وتطلّعاتٌ وآمال. وإنّ عذابات أصغر هؤلاء شأناً ما كانت أقلّ من عذابات أول من خُلِّدَتْ أسماؤهم...».

ويتداعى مع عاطفته الإنسانية العميقة، مع أخوته النضالية، مع زهوه بالآخرين، فيوصي بأخوته هؤلاء... «وليكن كل أولئك أعزّاء عليكم دوماً، مثل أناس تعرفونهم عن قرب، أناس من صلبكم، مثلكم!».

لقد تمرّد فوتشيك على الواقع منذ وعى، رفض، وفكّر دائماً، «لأنه كان يجب التفكير دائماً»، لكنه حتى حينما كان شابّاً، لم يكن مثل الشباب الآخرين، يعبّر عن تمرّده ورفْضِهِ بالنقد فحسب، بل كان يَجِدُ في التفكير طريقاً لإيجاد:

«أفكار جديدة، وحلّ المشكلات، وإحلال الجديد مكان الأشياء القديمة. التفكير معناه

العمل».

لم يكن فوتشيك يتلمس بأنامله أطراف لحيته لادِّعاء التفكير، لأنه كان واثقاً أن ملامسة أطراف اللحى يمكن أن تولّد شيئاً من المتعة، لكنها لا يمكن أن تولّد مفكراً أو فيلسوفاً! إن التفكير معناه العمل.

وكان يمجّد العمل، ويرى في تعلُّق أيّ رفيقٍ بعمله، بواجبه الحزبي، مظهراً لجوهرٍ أصيل. إن إعجابه ببطولة ليدا «الفتاة الجذلة، الخليّة القلب، اللّعوب لحدٍّ ما...»، كان يشعّ من كلّ كلمة كتبها وهو يرسم مجد صمودها، ولكنه كان يهيم بموقفها من العمل، من أداء واجبها الحزبي:

«كانت تعرف الكثير ولم تقل شيئاً. لكن الأهم من كل ذلك، أنها لم تتوقف عن العمل أبداً. وبتغير الوسط، بدّلت أساليب عملها وتبدّلت مهماتها. إلا أن واجبها كعضو في الحزب ما تبدل قط؛ أنْ لا تطوي ذراعيها، مهما كان القطاع الذي وجدت فيه».

وفي مجرى الكفاح البطولي، لا بدّ أن يتغذّى الثوريّ من مَعِيْنِه الذي لا ينضب، من إيمانه، وثقته المطلقة بالنصر، وأن يبدّد أيّ وهم يعترض طريق نضاله. إن الإيمان المطلق هو جدار فولاذي يتهشّم عليه كلّ أنواع الأعداء، يثير في نفوسهم الرعب، ويشلّ حركتهم:

«إن التفاؤل لا يجوز له ولا ينبغي أن يتغذى على الأكاذيب، بل على الحقيقة، على رؤية واضحة للنصر لا تتزعزع».

ولكي ينمو الثوريّ ويصبح جديراً بموقعه، كمعول لهدم القديم المتهرِّئ، وعين ذكية لاستشراف المستقبل، لا بدّ أن يعزّز ويعمّق إيمانَه بالمعرفة إذْ «لا يكفي أن يريد الإنسان، بل يجب أن يعرف كيف يكافح»، وأن يعرف في كل لحظة، موقع قدمه، وأين يضع الخطوة القادمة.

كيف...؟

إن الحزب ليس كمّاً مجرداً معلّقاً في مكان ما، بل هو كائن حيّ يتنفّس ويعيش وينمو بمُناضِليه، بإيمانهم وشجاعتهم وصمودهم، بفكرهم وعملهم المتفاني من أجل فرحهم الدائم... حدثني أحد قادة حزبنا عن واحدة من هذه اللحظات التي ينبغي فيها على المناضل أن يفكر ويتصرف، لكي يوقف وحشيّة العدو، ويربكِ استهتارَه:

«سألتُه بقدر ما استطعت عليه من هدوء، وهو ينفرد بي، في جوٍّ وحشيّ: لمصلحة من تضربني؟ أنا لا أحمل لك عداوة شخصية، بل أضحّي بكل ما يعزّ على إنسان من أجلك أيضاً من أجل ألّا يظلّ حفنة من مستغلِّي شعبنا قادرين على تشويهك وتخريب أولادك من بعدك...!».

يذكر الرفيق أنه همس بهذا الكلام وهو يرتجف! يرتجف من البرد، ويرتجف، ربما، من الخوف أيضاً!

إن فوتشيك يدرك خوف المناضل ويوظّفه ضدّ جلّاده!

«في كلّ إنسان هناك ضعف وقوة، شجاعة وجبن، صمود واستسلام، نقاء وقذارة».

«فالمخْلِص يقاوم، والغادر يخون، والضعيف يتهاوى تحت اليأس، والبطل يقاتل».

إنّ خوف المناضل ليس خوف الضعيف المتهاوي، بل إحساسٌ بالحياة! ولهذا لا يوحي الثوريّ أمام الجلّاد بالخوف، بل بالحياة! إنه لا يخاف الموت وإنما يتسامى في حبه للحياة، فيقوى ويكبر بامتداده في الحياة، يكبر باستشرافه المستقبل، فيعلو على جلّاديه...!

لأنهم «عاجزون عن التظاهر حتى بمصالح كاذبة لأمّتهم أو الرايخ، إنهم يعذّبون ويقتلون لمجرّد التلذُّذ».

إن الجلّاد لا يمكن أن يمتلك المستقبل أبداً، إنك لا يمكن أن تعذّب إنساناً حتى الموت دون أن تحطم شيئاً ما في أعماقك، شيئاً عزيزاً... إنسانيَّتَك. ولهذا فالجلّاد في نظر فوتشيك أسيرُ يومه، إنه يخاف المستقبل. وحينما يشعر الإنسان بإنسانيَّته، يرفض أن يكون قاتلاً! لأن الإنسان يستطيع تطويع المستقبل بفكره وعمله، يستطيع أن يدرك أداة امتلاك المستقبل. ولم يكن الجلّاد يوماً، عبر كل تاريخ البشرية، أداةً لامتلاك المستقبل. وفوتشيك يستمدّ أعمق الإيمان من معرفته هذه، فيبشّر رفاقه أنَّ هتلر لا يمكن أن ينتصر، لأنه يناطح قانون الحياة، التطوّر. ولا بدّ لكم أن تقاوموا، تصمدوا... وأن تُنذِروا جلّاديكم:

و«لا يعينك على ذلك إلا إيمانك الراسخ بأنهم لن يفلتوا من القصاص العادل حتى ولو أجهزوا على كل الشهود على جرائمهم».

إنك وأنت تفعل ذلك لن تخشى على قلبك، لن تخشى على الإنسان فيك! لأن «بوسعهم أن يسلبوا الحياة منّا. أليس كذلك؟ ولكنهم لن ينتزعوا منّا شرفنا وحبَّنا أبداً...».

النشيد

أشرف على النهاية
في منعطف منها، يقف في «الرّبذة».
أبو ذرّ الغفاري
يومئ بعينين مشرقتين، ضاحكتين، مخلصتين
- : قتلوك يا أبا ذر!
فيضحك...
- : وحاولوا أن يقتلوا فيك حبك لعصرك وللناس
ويضحك...
وتسألني يا سيدي: إلى أين؟
إليك يا سيدي، إلى العصر، وإلى فوتشيك.
- : ولكنك حزين وقد قتلوني وأنا أضحك...
وقتلوا فوتشيك وهو يغني...
لـ«أنّه لا يرى الحياة دون أغنية».
«ونحن أحوج ما نكون هنا إلى الأغنية».
وداعاً، أبا ذرّ
وداعاً أيها الصحابي الجليل!
وأجتاز محفّات تحمل طغاة العصر...
هاهُنا سجن بانكًراك، زنزانة 267
وها هو حارسه كولينسكي، وأرى الناس حول فوتشيك يغنّون بصوت واعد!
إنه بابلو نيرودا يغنّي لفوتشيك!
فوتشيك يسمع مبتسماً، ولكنه خجل، يمصّ الدم لكيلا نراه
ولكن ذلك ضربٌ من الجنون، فالدّمُ يسيل منه، حتّى من أطراف أنامله؟

ويرتفع الغناء...

«هناك الكثيرون أمثال فوتشيك

أعلوا وشادوا

وفي كل حالٍ أجادوا

وأنت كذلك أنجزت كل الذي في يديكْ

ضئيلاً... جليلا

وما عرف المستحيل الطريق إليك

لأنك تؤمن أنّ الخطى إنْ تلاقت قليلا

ستصبح جيشاً وصبحاً نبيلا

وأنت ككلّ الذين أرادوا

لوجه الحياة رداءً جميلا

تمنيتَ أنْ يطلعَ الصبحُ من قبضتَيكْ

فعلتَ الذي كان حتماً عليكْ

وما كان حتماً على الناس جيلاً فجيلا...».

يتوقّف الغناء لبرهة. عفواً لتطفلي أيها الرفيق فوتشيك. أقدم لك بعضاً من أصدقائي؛ جيلاً آخر من الشهداء، ربما تعرفهم، من هذه الأرض المعطاء...

لكن لماذا يا سيدي أنت حزين؟

- : «لقد عشت للفرح... وفي سبيل الفرح أموت، ولسوف تسيئون إليَّ لو وضعتم ملاك الحزن على قبري».

لكن الحزن ما زال يعتصر قلوب كثيرٍ من النسوة والأطفال، أيها الرفيق فوتشيك، إنهم راسخو الإيمان، لكنهم يريدون نهاية أحزان البشرية أيها الرفيق.

- : «إذا كنتم تعتقدون أن بوسع الدموع أن تغسل تراب الأسى، فلتبكوا إذن، ولكن لبرهةٍ لا غير»!!

إن البطل لا يريد البكاء، لا يريد الحزن، وإنما العمل، مواصلة النضال... الثقة الكاملة بالمستقبل، إنه لم يمنح حياته عبثاً، ولهذا عرف كيف يواجه جلّاديه حتى آخر لحظة:

«إنكم ستقرؤون حكمكم عليَّ الآن وأعرف أنه الموت للإنسان... أما حكمي عليكم فقد نطقت به منذ أمد بعيد لقد كتب فيه بدم جميع الناس الشرفاء في العالم:

الموت للفاشية والحياة للإنسان

المستقبل للشيوعية...!».

إنّ البطل لا يرتخي في لحظاته الأخيرة، بل يصبح أكثر تماسكاً، أكثر هدوءاً، وقد كتب فوتشيك في آخر رسالة لأسرته:

«إن الإنسان لا يصغر حتى ولو قطعوا رأسه!».

حياة...!

في 23 شباط من كل عام يولد يوليوس فوتشيك، إنه يوم ميلاده!

ولأنه عشق الحياة، وأحبّ جمالها، أحبكم أيها الناس الشرفاء، وكان سعيداً معكم! ولا شك أنكم تحبّونه... فاحتفلوا به، غنّوا له وازرعوا في البستان الذي تعهَّده الوردَ من كلّ الألوان!

إن عنوانه معكم، إنه قريب منكم، إنه فيكم. في قلوبكم. في ضمائركم... في ضمائركم!

فعانقوه دائماً... حافظوا عليه!

حافظوا عليه أيها الناس الشرفاء، أيها الرفاق...!

فخري كريم
1978/1/1

المصادر:

- الرجل والبطل
- تحت أعواد المشنقة

ملاحظة:

- جميع الاستشهادات الواردة في المقدمة اقتُطِفَت من الكتابَين المذكورَين.

تنويه من جوستا فوتشيكوفا

علمت من رفاق السجن، في معسكر اعتقال رافنسبروك، أنَّ زوجي يوليوس فوتشيك، رئيس تحرير «رودي برافو» و«تفوربا»، قد حكم بالإعدام من قبل إحدى المحاكم النازية في برلين بتاريخ 25 آب 1943.

أما التساؤلات بشأن مصيره اللاحق فقد عادت أصداؤها تتردّد من فوق الأسوار العالية المحيطة بالمعسكر.

وإثر الهزيمة التي لحقت بألمانيا النازية في أيار 1945، تمّ تحرير السجناء الذين لم يسمح الوقت للفاشيين بتعذيبهم أو قتلهم. وكنت أنا من بين هؤلاء. لقد عدت إلى وطني المحرَّر وبدأتُ البحث عن زوجي. وكنت مِثل ألوف مؤلفة غيري، ممن كانت وما برحت تفتّش عن أزواجها وزوجاتها وأطفالها وآبائها وأمهاتها، ممن ألقى بهم المحتلّون الألمان في مكان ما من أماكن تعذيبهم التي لا حصر لها.

إن حكم الإعدام قد نفذ بيوليوس فوتشيك في برلين بتاريخ 8 أيلول 1943، أي بعد أربعة عشر يوماً من صدور حكم الموت عليه.

كما أصبحت على علم بأن فرصةً للكتابة قد سنحت ليوليوس فوتشيك أثناء فترة مكوثه في سجن بانكراك. وقد تم ذلك بفضل أحد السجانين ويدعى أدولف كولينسكي الذي وفّر له في الزنزانة القلم والورق وبات يهرّب الصفحات المكتوبة، واحدةً إثر أخرى، إلى خارج السجن سرّاً.

لقد التقيت بهذا السجَّان وبدأت بجمع المادة التي كتبها يوليوس فوتشيك وهو في سجن بانكراك، خطوة خطوة. ومن ثم عكفت على ترتيب هذه الصفحات المرقَّمة، التي تم إخفاؤها في أماكن مختلفة، عند أناس مختلفين. وهأنذا أقدمها الآن. إنها آخر ما كتبه يوليوس فوتشيك.

جوستا فوتشيكوفا
براغ – أيلول 1945

ما كتب في سجن الجستابو
في بانكراك، ربيع 1943

أنْ تجلس متأهّباً، جسدُك متيبِّسٌ باستقامة، يداك مضغوطتان بشدّة إلى ركبتيك وعيناك تَعْشَيان تقريباً وأنت تحدّق بالجدار المصفَرّ لـ«بيت السجن» في قصر بيتشيك – ليس هذا بالتأكيد أفضلَ وضعٍ للتأمُّل. إذ مَن بوسعه أن يجبر فكرة لكي تجلس متأهبة؟

مرّةً أطلق أحد الأشخاص – الذي لن نعرف نحن أبداً متى كان ذلك ومن هو – على «بيت السجن» في قصر بيتشيك اسم (السينما). لقد كانت ومضةَ تَجَلٍّ. غرفةٌ رهيبة، سِتُّ مصطبات طويلة، الواحدة خلف الأخرى، تحتلُّها أجساد المعتقلين المتصلِّبة الذين سيواجهونً التحقيق، أمامهم جدارٌ عارٍ أشبه بشاشة سينما. إنّ ستوديوهات الدنيا كلّها ما عرضت أبداً قدراً كهذا من الأفلام مثل التي عرضت فوق هذا الجدار من خلال عيون المعتقلين الذين كانوا وما يزالون مرغَمين على مواجهة تحقيقٍ آخر، للتعذيب أو الموت – أفلام تصوِّر حَيَوات بأكملَها أو تصوِّرُ أكثرَ المشاهد تفصيلاً من حياة ما، أفلام عن أمهات، نسوة، أطفال، بيت مهدَّم، حياة ضائعة، أفلام عن رفاق صامدين وعن خيانة، عن الرجل الذي سلّمته تلك المنشورات، عن دمٍ يسيل ثانية، عن كفٍّ ثابتة الجَنَان تعاهد بالوفاء، أفلام تكتظ بالأهوال والأضرار، بالكراهيةٍ والمحبة، بالمخاوف والأمل. كان كُلُّ إنسان هنا، وهو يدير ظهره إلى الحياة، يموت يومياً أمام مرأى نفسه. ولكن ما كان كلُّ واحدٍ يولد من جديد.

لقد شاهدت أنا فيلميَ الخاص مئات المرات، تعاد تفاصيله آلاف المرات. إنني أحاول الآن، لمرة واحدة لا غير، سرد قصة هذا الفيلم. وإذا كان حبل المشنقة سيلتفُّ حول عنقي قبل أن أنتهي، فإن هناك ملايين ستبقى بعدي لتكتب له (النهاية السعيدة).

الفصل الأول
أربع وعشرون ساعة

بعد خمس دقائق، تدقّ الساعة العاشرة، إنه مساء ربيعيّ، عَبِقٌ، جميل، مساء 24 نيسان 1942.

إنني أُسرع – قدر ما تسعفني عليه هيئتي المتنكِّرة بزيّ عجوزٍ يعرج – أُسرع إلى دار أسرة جيلينك، قبل غلق البوابة. إن ميريك «مساعدي» يجلس هناك بانتظاري. أعرف أن ما عنده لي هذه المرة لا أهمية له، كما أني أيضاً لا أملك ما يستحق الذكر. ولكن حين يكون كل شيء قد أعد لعقد اجتماع ما، فإن النكوص عنه لا يعني إلا إثارة الهلع – ولم أكن على الأخصّ أرغب بإثارةِ مخاوفَ لا داعيَ لها في هذين الإنسانيَن الطيّبين، اللّذين يضيفوننا.

رحّبا بي بقدَح شاي. كان ميريك هناك بانتظاري – بالإضافة إلى أسرة فريد. هذا طيش منكم. أيها الرفَاق، أحبّ أن ألتقي بكم، لكن لا على هذا النحو، كلّكم. فهذا هو الطريق المؤكّد للسجن أو الموت. إما أن تلتزموا بقواعد العمل السرّي، أو تتركوا العمل، لأنكم بهذا تجلبون المخاطر لأنفسكم والآخرين... مفهوم؟

«نعم، مفهوم».

«ما عندكم لي؟».

«عدد أوّل أيار من (رودي برافو)».

«رائع. وأنت يا ميريك؟».

«لا جديد. لا يوجد هناك ما يستحق الذكر. فالعمل يسير بانتظام».

«طيب. سنلتقي ثانيةً بعد أول أيار. وسأعلمكم بذلك. إلى اللقاء إذن!».

«هيا، خذْ قدحاً آخر من الشاي!».

«لا، شكراً يا سيدة جيلينكوفا، فالدار تغصّ بنا».

«ولكنه مجرّد قَدَحٍ آخر من الشاي، تفضَّل».

البخار يتصاعد من الشاي الذي خدر لتوه.

ثمّة من يقرع الجرس.

أفي هذا الوقت من الليل؟ من يمكن أن يكون؟

تبدو اللهفة على الزوار. وينهمر القرع على الباب.

«افتحوا، شرطة!».

أسرعوا إلى النافذة! اهربوا لديَّ مسدّس. سأبقى لتغطية انسحابكم.

فات الأوان! الجستابو تحت النافذة، يصوّبون مسدّساتهم إلى داخل الغرفة. وتتدفّق شرطة بملابس مدنية من الممر، عبر الباب المحطَّم، إلى المطبخ ثم إلى الغرفة. واحد، اثنان، ثلاثة، تسعة رجال. إنهم لا يستطيعون رؤيتي لأنني كنت أقفز خلفهم مباشرة، خلف الباب المشرع. يمكنني إطلاق النار دون عائق. لكن تسعة مسدسات مصوَّبة إلى امرأتين وثلاثة رجال عُزَّل. لو أني أطلقت النار، فسيكونون أوَّل من يُقتَل. وحتى لو أردت ألّا أقتل إلا نفسي. فسوف يبدأ الرصاص يتطاير ويكونون هم الضحايا. لكنّي إذا امتنعت عن إطلاق النار، فربما قضوا في السجن نصف عام أو عاماً واحداً وعندها ستحرّرهم الثورة وهم على قيد الحياة. ميريك وأنا فقط لن نستطيع الإفلات من هذا، سنتعرّض إلى التعذيب على أيديهم – لكنهم لن ينتزعوا منّي أيّ شيء، وماذا عن ميريك؟ رجل حارب في إسبانيا، وصمد سنتين في أحد معسكرات الاعتقال بفرنسا، وجاء براغ بعد أن ترك فرنسا سرّاً، والحرب في ذروتها – كلّا، إنّه لن يخون أبداً.

أمامي ثانيتان لأحسم أمري. أو ربما كانت ثلاثاً؟

لو أنّي أطلقت النار، فلن أنقذ شيئاً. لن أنقذ إلا نفسي من التعذيب، لكن أربعة رفاق سيفقدون حياتهم دون مبرِّر. أليس كذلك؟ أجل!

هيا!

أخرج من مخبأي

«هاه! واحد آخر!».

أول ضربة على الوجه. ربما كان القصد منها إلقائي أرضاً.

«ارفع يديك!».

ثانية. ثالثة.

هوذا ما كنت أتوقعه.

وانقلبت شقّةٌ كانت محطّ رعايةٍ جميلة إلى مجرَّد كومة أثاث مبعثرة وزجاج محطم. مزيد من الضرب والركل.

«امشِ!».

حشروني بسيارة وكانت مسدَّساتهم مصوَّبة إليَّ طول الوقت. في الطريق بدأ التحقيق.

«من أنت؟».

«البروفسور هوراك».

«كذَّاب!».

هززتُ كتفي.

«لا تتحرّك، وإلا أطلقت النار!».

«أطلقْ!».

وبدلاً من إطلاق النار علي، ضربوني لا غير.

نمرّ بحافلة. تبدو مزينة بالورود البيضاء. حافلة عرس، في هذا الوقت من الليل؟ لا بدّ أني محموم.

قصر بيتشيك. لم أحسب أبداً أني سأدخله وأنا على قيد الحياة. وها أنا الآن أصعد حتى الدور الرابع بسرعة مضاعفة. آه: القسم 2 – أ – 1 الشهير، قسم مكافحة الشيوعية. ويبدو لي أن الفضول قد أخذني لمعرفة ما سيحصل.

ضابط شرطة نحيل، طويل، آمر فصيل المداهمة، يدفع بالمسدس في جيبه ويأخذني إلى مكتبه. يشعل لي سيجارة.

«من أنت؟».

«البروفيسور هوراك».

«كذّاب!».
الساعة التي على رسغه تشير إلى الحادية عشرة.
«فتّشوه!».
بدأ التفتيش. يجرّدونني من ملابسي.
«لديه هوية».
«بأيّ اسم؟».
«البروفيسور هوراك».
«دقّقُوها!».
تلفون.
«غير مسجَّلة، إنّها مزوَّرة، تلك الهوية».
«من أعطاها لك؟».
«دائرة الشرطة».
أوّل ضربة بعصا. ثانية. ثالثة. هل لي أن أعدّها؟ إنك لن تستطيع أن تبعث بتقرير بهذه الأرقام إلى أيّ مكان، يا بني.
«اسمك؟ تكلّمْ! العنوان؟ تكلّمْ! مع من كانت صلتك؟ تكلّمْ! أيّة شقق استخدمت؟ تكلّمْ! تكلّمْ! تكلّمْ! وإلّا ضربناك حتى تزهقَ روحُك!».
كم عدد الضربات التي يسعُ رجلاً معافىً أنْ يتحمَّلَها؟
المذياع يعلن منتصف الليل. المقاهي توصد أبوابها. آخر الضيوف يأوون إلى منازلهم، العشاق يتوانون أمام البيوت، غير قادرِين على الافتراق. الضابط النحيل، الطويل يلجُ الغرفة بابتسامة جذلة.
«كل شيء في مكانه – يا صديقي رئيس التحرير؟».
من أخبرهم؟ آل جيلينيك؟ آل فريد؟ إنهم لا يعرفون حتى اسمي.
«ألا ترى أننا نعرف كلَّ شيء. تكلّمْ وكنْ عاقلاً».
مفردات غريبة! أنْ تكون عاقلاً = أنْ تخون.
لستُ عاقلاً.
«أوثِقوه! واضربِوه بشدّة!».
الساعة الواحدة. آخر الحافلات تعود إلى محطّاتها، الشوارع تكاد أنْ تكون خالية.
المذياع يتمنى لمستمعيه الأوفياء ليلةً سعيدة.

«من هم أعضاء اللجنة المركزية الآخرون؟ أين هي معدّات البثّ؟ أين هي المطابع؟ تكلّمْ! تكلّمْ! تكلّمْ!».

الآن أستطيع أن أحصي عدد الضربات بيسرٍ أكبر. الألم الوحيد الذي يمكن لي أن أشعر به هو في شفتي التي سلخت جرّاء الضرب.

«انزعوا حذاءه!».

صحيح تماماً، إنّ باطن قدمي لم يخدر بعد. بوسعي أنْ أحسّ به. خمسة. ستة. سبعة. كأنّ العصي الآن تشقُّ طريقَها إلى دماغي مباشرة.

الساعة الثانية. براغ مستسلمة للرقاد. في مكان ما، ربما كان هناك طفل يتقلب في رقاده. ورجل ما يلاطف زوجته من ردفيها.

«تكلّمْ! تكلّمْ!».

أدور بلساني في فمي وأجرِّب أنْ أعدّ الأسنان التي سقطت. لا أستطيع أن أعدَّها جميعاً. اثنتا عشرة. خمسة عشر. سبعة عشر؟ لا. هذا عدد ضباط الشرطة الذين هم الآن هنا لـ«استجوابي». بعضهم يبدو عليهم التعب واضحاً الآن. مع ذلك، فإن الموت يأبى القدوم.

الساعة الثالثة. الفجر يزحف من حافّة المدينة، باعة الخضار في طريقهم إلى الأسواق، الكنّاسون ينتشرون في الشوارع. ربّما سأعيش لكي أشهدَ فجراً آخر.

إنهم يأتون بزوجتي.

أمصُّ الدَّمَ حتّى لا تراه، إنَّ ذلك ضربٌ من الجنون فالدَّم يسيل من كلِّ شبرٍ في وجهي، وحتى من أطراف أناملي.

«هل تعرفينه؟».

«كلا! لا أعرفه».

قالت ذلك دون أن تندّ عنها حتى نظرة فزع واحدة. الحبيبة لقد برَّتْ بوعدها بأنَّها لن تعترف أبداً بأنها تعرفني، رغم أنَّ ذلك لم يعدْ مُجدِياً الآن. من يمكن أن يكون قد أخبرهم باسمي؟

اقتادوها بعيداً. لقد ودَّعتُها بألطف نظرة قدرِْتُ عليها. لكن لعلّها لم تكن نظرةً لطيفةً أبداً. أنّى لي أن أعلم.

الساعة الرابعة. هل انتشر النور الآن؟ أم ما زالت الظلمة جاثمة؟ لم تكن النوافذ المسودّة

لتجيب أبداً. والموت يأبى القدوم حتى الآن. أينبغي علَيَّ أن أذهب لملاقاتك؟ وكيف؟

ضُرِبْتُ، ارتطمتُ بشخصٍ ما وسقطت على الأرض. إنهم يرفسونني ويدوسون علَيَّ.

نعم، هكذا هو الأمر وسوف تأتي النهاية سريعاً. الضابط الأسمر يرفعني من لحيتي وهو يضحك بأناقة ويريني قبضته ممتلئةً بالشعر المنزوع عنوة. إنه لأمر مضحك حقاً. فأنا لم أعد أشعر بأي ألم.

الساعة الخامسة، السادسة، السابعة، العاشرة، منتصف النهار، العمال يتوجهون إلى العمل ويؤوبون، الأطفال يؤمُّون المدرسة، يعودون منها. في الحوانيت يبيعون، في البيت يطبخون. ربما تذكُرُني أمي في هذه اللحظة بالذات، ربما عرف الرفاق بأني قد اعتُقلْتُ فيتخذون تدابير الحيطة... ماذا سيحدث لو تكلّمت... لا، لا تقلقوا، لن أتكلم، صدِّقوني. وعلى أيّة حال، فالنهاية ما عادت بعيدة الآن. كل شيء إنْ هو إلّا حلمٌ الآن، حلمٌ شرّير، محموم. ومرّة أخرى تنهال الضربات ثم يرشّونني بالماء والضرب ثانية وثانية «تكلَّمْ! تكلَّمْ! تكلَّمْ!». وأنا ما زلت عاجزاً عن الموت. يا أمي، يا أبَتِ، لماذا جعلتماني على هذا القدر من التحمل؟

بعد الظهر. الساعة الخامسة. لقد تعب الجميع الآن. الضربات تسقط الآن متقطِّعة، ما بين فترات طويلة. ما عاد الأمر الآن إلّا مسألة روتين. وفجأةً من بعيد، من بُعدٍ سحيق، يأتي صوتٌ هادئ، رقيق كأن ثَمَّة مَن يلاطفني.

«لقد نال ما يكفي!».

ومن ثم كنت أجلس، الطاولة التي أمامي تنهار لتظهر ثانية، وشخص ما يعطيني شيئاً ما لأشربه، وآخر يقدّم لي سيجارة لا أستطيع أن أمسك بها، وشخصٌ ثالث يحاول أن يلبسني حذائي ويقول إنه لا يدخل، وبعدها ها هم يخرجونني نصفَ مقتاد ونصف محمول أسفل السلّم، إلى سيارة، وها نحن ننطلق بالسيارة، وأحدهم يصوّب مسدَّسَه نحوي ثانية. يبدو لي ذلك مضحكاً. نحن نمرّ بحافلة مزيّنة بزهور بيضاء، حافلة عرس. ولكن ربما كان الأمر كلّه لا يعدو عن حلم، ربما كان الأمر كلّه مجرّد حُمّى، أو احتضار أو أنه الموت ذاته أخيراً. مع هذا فالموت صعب، أما هذا فهو يسير، هذا لا شيء على الإطلاق، إنه عبث أطفال لا غير، لعاب شمس، نفس آخر وينتهي كل شيء.

ينتهي كل شيء؟ ليس الآن، لم يحن الأوان بعد. هأنذا أقف ثانية، أجل، حقاً، إني أقف لوحدي، دون مساعدة أحد. وأمامي مباشرةً جدارٌ أصفرُ قذرٌ، ملوَّثٌ بـ... بماذا؟ يبدو

كالدّم... أجل إنه دم. أرفع إصبعي وأحاول أن أحكّه قليلاً... وأفلح. ما زال طرياً، إنه دمي... وعندها يضربني أحدهم على رأسي من الخلف ويأمرني أن أرفع يدي وأقوم ببعض التمارين. في الحركة الثالثة أسقط...

أحد رجال الـ«أس أس» طويل منتصب فوقي ويرفسني ليرغمني على النهوض. ما أسخف كلَّ ذلك! مرة أخرى، يرشني أحدهم بالماء، مرّة أخرى أجلس. امرأةٌ تعطيني دواء وتسألني عن مكان الألم فِيَّ، كأنّ ألمي قد تجمَّع الآن في قلبي.

«أنت لا قلب لك!»، يقول رجل الأس أس الطويل.

«أوه، بلى، إنَّ لي قلباً»، أجيبه على الفور وأشعر بالفخر لأني ما زلت أملك ما يكفي من القوة لكي أدافع عن قلبي.

وعندها أخذ كلُّ شيءٍ بالتلاشي ثانيةً، الجدار، المرأة مع الدواء ورجل الأس أس الطويل...

أمامي الباب المشرّع للزنزانة. رَجُل أس أس بدين يجرني للداخل، يرفع مِزَقَ قميصي ويسحبني على فراش من قشّ، يتحسّس جسدي الوارم ويأمر بجلب الكمّادات لي.

يخاطب الآخر ويهز رأسه «انظرْ إلى ما هم قادرون أنْ يفعلوه!».

وثانيةً من بعيد، من بُعد سحيق، أسمع صوتاً، هادئاً، ناعماً، رؤوما كأنما ثَمَّة مَن يلاطفني.

«لن يستطيع البقاء حيّاً حتّى الصباح».

بعد خمس دقائق تدقُّ الساعة العاشرة. إنه مساء ربيعي، عميق، جميل، مساء 25 نيسان 1942.

الفصل الثاني
احتضار

«حيث نحلّق نحو الأنجم

نطبق أعينَنا

فما نبصر بعد وهج الشمس...».

رجلان، أذرعهما مطوية للأسفل أمامهما، يتمشيان حول سرداب أبيض، أحدهما خلف الآخر، بخطى ثقيلة، بطيئة، ينشدان ترتيلةً كنسيّة، حزينة بصوتين متنافرين، ممطوطين.

«... ما أعذب أن تصعد للسماء أرواحُنا، وتبلغ غايتَها رحلتُنا، تبلغ غايتَها رحلتُنا...».

لقد ماتَ أحدٌ ما... من يكون؟ أحاول أنْ أدير رأسي. لعلَّني ألمحُ نعشاً، فيه ميت والشمعتين المُشرئبَّتَين للأعلى فوق الرأس...

«... وحيث ظلمة الليل تنتهي،

وحيث النور الأبدي يتوهّج».

لقد رفعت بصري أخيراً، لم يكن بإمكاني رؤية أحد. لا يوجد أحدٌ هنا – هذان الاثنان وأنا فقط. لمن إذن ينشدان ترانيمهما الجنائزية؟

«وهذا النجم الساطع أبداً، يسوع هو، ابن الله الحق».

هذه جنازة. أجل جنازة لا ريب فيها. ومن تُرى يدفنون؟ من هناك؟ هما الاثنان فقط – وأنا. أنا نفسي!! يمكن أن تكون جنازتي؟ ولكن أصغيا إليَّ يا صديقَيَّ، لا أن يكون هناك سوء فهم! فما أنا بميتٍ أبداً، بل حيٌّ مثلكما تماماً. ألا تريان بنفسيكما أنني أنظر إليكما وأتحدث إليكما. قِفا وإيّاكما أنْ تدفناني!

«حين الراحلُ الغالي الحبيبُ

يودِّعُنا الوداعَ الأبديَّ الحزين...».

لكنهما لا يسمعانني وكأنّ بهما وَقَر! ألا أتحدّث بصوت مرتفع؟ أم أنّي قد متُّ حقاً ولم يعد

بإمكانهما أن يسمعا صوتاً لا جسدَ له؟ أم أن جسدي هو المسجَّى هناك على بطنه وأنّي أحدق في نعش؟ شيءٌ غريب!

«تتطلَّعُ العيونُ الحَرَّى إلى السماء –

ها قد بلغت نهايتَها رحلتُه،

ها قد بلغت غايتَها رحلتُه...».

أتذكَّر الآن: لقد رفعَني أحدهم بصعوبة وألبسني ثيابي، ثم إنهم حملوني على نقّالة ورنّتْ في الرواق خُطىً معدنيّة وعندها... هذا كل ما أذكره. ولا أعرف أكثر من ذلك. لا أذكر شيئاً آخر.

«... هناك حيث النّور الأبدي يتوهّج...».

لكن كلّ هذا لا معنى له. فأنا حيّ. وبإمكاني الشعورُ بوجعٍ ما بعيد وبالظمأ. والموتى لا يعطشون. أجمعُ كلَّ ما بقي لديَّ من قوّة لأُحرّك يدي، فينسلخ عني صوت غريب، غير طبيعي:

«ماء!».

أخيراً توقَّف الرجلان عن الدوران. وها هما ينحنيان علَيَّ، أحدهما يرفع رأسي ويسكب الماء في فمي.

«اسمعْ يا فتى، عليك أن تأكلَ شيئاً. يومان وأنت تكرع الماء وتكرع ليس إلا...».

ما الذي يقصده بقوله؟ منذ يومين؟ وفي أيّ يومٍ نحن إذن؟

«الإثنين!».

الإثنين. لقد اعتُقلْتُ منذ يوم الجمعة. ما أثقل رأسي! وما ألذ برودة السماء! النوم! دعوني أنم! لقد مزَّقتْ قطرةُ ماءٍ واحدةٌ السطحَ الزجاجيّ للبئر. هذا هو نبع الماء في المرج وسط الجبال، هذا النبع الذي أعرفه قرب كوخ الحطّاب، عند قاعدة جبل روكلان، وحفيف المطر الناعم بين أشجار الصنوبر... يا لعذوبة النوم...

... ومرة أخرى حين أستيقظ، يكون الوقت مساء الثلاثاء وفوقي كلبٌ منتصب. كلبُ ألزاسيّ، يتطلّع إليَّ متسائلاً بعينيه الذكيَّتَين، الجميلتَين ويبادرني بالقول:

«أين كنتَ تعيش؟».

أوه، كلّا. ليس هو الكلب. فهذا صوتُ مخلوق آخر. نعم، شخص آخر يقف هناك يمكنني أنْ أرى جزمته الضخمة وزوجاً آخر من الجزمات الضخمة وسراويلَ عسكريّة. ولكني غير قادرٍ على رؤية ما هو أعلى، فما إن أحاول أن أرفع بصري حتى يبدأ رأسي يدور ويدور. أوه، وما أَهمية ذلك، دعوني أنم...

الأربعاء.

الرّجُلان اللذان كانا ينشدان التراتيل يجلسان إلى طاولة الآن، يتناولان الطعام في آنية من الفخار. يمكنني أن أميّزهما الآن. أحدهما أصغر سنّاً من الآخر، لكن مظهر الرهبان لا يبدو على أيٍّ منهما. والسرداب لم يعد سرداباً، بل زنزانة سجن مثل غيرها وأرضيّتها تبتعد عن نظري وهي تتقارب لتنتهي إلى باب أسود ثقيل...

يصرّ مفتاحٌ في القفل، فيقفز الرجلان ويقفان على أهبّة الاستعداد ثم يلجُ المكان شخصان آخران بملابس الأس أس، يصدران أمرهما بوضع ملابسي علَيَّ. لم تكن عندي أدنى فكرة كم من الأوجاع كانت مختبئة لي في كلّ ساقٍ من ساقَي السروال، وفي كلّ كمٍّ من قميصي – ثم وُضِعتُ على نقالة وحملاني ونزلا السلّم بي والخطوات المعدنية ترنّ على طول الرواق... إذن هذا هو الطريق نفسه الذي اقتادوني عبره في المرّة السابقة وأنا فاقد الوعي. إلى أين يؤدي هذا الطريق؟ وفي أي جحيم ينتهي؟

ألقوني على أرضية مكتب الاستقبال البشع الكئيب، لقلم محكمة الشرطة الألمانية في بانكراك وارتفع صوت تشيكيّ، بطيبة مدّعية، يترجم لي سؤالاً بصفة صوت ألمانيٍّ غاضب:

«هل تعرفها؟».

رفعت ذقني بيدي. أمام النقّالة تقف فتاةٌ يافعة ذات وجه عريض. كانت تقف باعتزاز، منتصبة القامة، مرفوعة الجبين بسمُوٍّ دون تحدٍّ، فقط عيناها منخفضتان قليلاً بالقدر الكافي لرؤيتي وإلقاء التحيّة بهما عليَّ.

أنا لا أعرفها.

أذكر أني لم أرها إلّا للحظة خاطفة، في تلك الليلة الوحشية بقصر بيتشيك. وها إنّي أراها للمرة الثانية. ومع الأسف، لم أرها مرةً ثالثة لأتمكّن من أنْ أشدَّ على يدها معبرّاً عن اعتزازي بموقفها السّامي في هذا المكان. كانت زوجة أرنوست لورينز. وقد تم إعدامها في الأيام الأولى من إعلان الأحكام العرفية عام 1942.

«وهذه، لا بد أنك تعرفها جيداً».

أنّا جيراسكوفا! ربّاه، أنيكا. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أنا لم أنطق باسمك بتاتاً، وليس لك أدنى علاقة بي، أنا لا أعرفك، هل تفهمين، لا أعرفك...

«كلا، لا أعرفها».

«هيا يا رجل، كن عاقلاً!».

«لا أعرفها».

«فات الأوان يا يوليوس!»، تقول أنيكا، ووحدَها حركة غير محسوسة من أناملها التي كانت تتشبّث بمنديلها هي التي فضحت اضطرابها. «فات الأوان. لقد وشى أحدهم بي».

«مَن؟».

«اخرسي!» – قاطعها أحدهم بحدّة ودفعها بعنف إلى الوراء عندما انحنت لتصافحني.

«أنيكا».

لا يمكنني أن أسمع المزيد من الأسئلة. ومن بعيد، ومن دون ألم، كأنني كنت مجرد متفرج، شعرت برَجُلَي الأس أس يعودان بي إلى الزنزانة، يرميان النقالة بوحشية ويسألانني وهما يقهقهان إنْ كنت أُفضّل أنْ أتمرجح معلَّقاً من عنقي.

الخميس.

بدأت باسترجاع وعيِي. أحد رفاق السجن وهو الأصغر سنّاً، يدعى كارليك، وينادي الأكبر سنّاً «أبَتِ». إنهما يحدّثانني بشيءٍ ما عنهما، لكن كل شيء يختلط في رأسي، هناك شيء ما عن منجم وأطفال يجلسون على مصطبات. أسمع جرساً يرنّ. لا بدّ أنّ النيران قد اندلعت في مكان ما. ويزعم أنّ طبيباً وأحد ممرِّضي الأس أس يأتيان لمعاينتي يوميّاً، ويُزعم أنّي لم أكن على تلك الدرجة من السوء وأنّي سأتعافى ثانية. هذا ما يقوله «أبَتِ» وهو يقول ذلك بإصرار متناهٍ ويؤكّد كارليك على كلامه بحماس، حتى أنّي برغم ما أنا عليه ما برحت قادراً على الشعور بأنهما إنما كانا يمرّران علَيَّ كذبةً بلهاء. ما أطيب قلبَيهما! ولَكَم أشعر بالأسف لأنّي عاجز عن تصديقهما.

بعد الظهر.

ينفتح باب الزنزانة ويندفع إليها كلب، دون ضوضاء، بخفّة. يقف على رأسي ويتطلّع إليَّ بفضول ثانية. ومرة أخرى جزمتان ضخمتان – أعرف الآن: إحداهما تعود إلى صاحب الكلب، مدير سجن بانكراك. أما الأخرى فلرئيس قسم مكافحة الشيوعية في الجستابو، وهو نفسه الذي أشرف على التحقيق معي تلك الليلة – ثم زوج سراويل مدنية، تابعتهما عيناي إلى أعلى – أجل، أعرفه، إنه ذلك الضابط النحيل، الطويل الذي كان يقود فصيل المداهمة. إنه يجلس على كرسي ويأخذ بالتحقيق معي.

«لقد خسرت لعبتك. أنقذْ رأسَك على الأقل وتكلَّمْ!».

يقدِّم لي سيجارة. أرفضها، فأنا عاجز عن تحمّلها.

«كمْ بقيت تسكن لدى عائلة باكس؟».

لدى عائلة باكس! هذا أيضاً! من ترى أخبرهم بذلك؟

«ألا ترى أننا نعرف كل شيء. هيّا تكلَّمْ!».

إذا كنتم تعرفون كل شيء، فما نفع كلامي بعد؟ أنا ما عشت حياتي سُدىً – ولن أفسِد نهايتَها.

ويستمر التحقيق ساعة واحدة. ولم يكونا يصرخان بل يعيدان أسئلتهما بصبر، وحين لا يظفران بجواب، يوجِّهان الثاني، والثالث، والعاشر.

«ألا يمكنك أنْ تفهم؟ لقد انتهى الأمر، هل تفهم، وضاع منك كل شيء».

«أنا الذي ضعت فقط»...

«ما زلت تؤمن بانتصار الكومونة؟».

«طبعاً».

«ما زال يؤمن» يتساءل الرئيس بالألمانية، ويترجم الضابط الطويل «ما زال يؤمن بانتصار روسيا؟».

«طبعاً. لا يمكن للأمر أن ينتهي إلا على هذا النحو».

عندها راودني التعب. لقد جمعت ما تبقى عندي من قوّة لأظل يقظاً، فالآن قد بدأ ذهني ينضب بسرعة مثل دم يتدفق من جرح عميق. وما زال بإمكاني أن أشعر بهم وهم يمدّون أياديهم لي – ربما كانوا يقرؤون شارة الموت على جبيني. هذا صحيح، ففي بعض البلدان، جرتْ العادة أن يقوم حتى الجلّاد بتقبيل المحكوم بالإعدام قبل تنفيذ الحكم فيه.

مساءً.

رجلان بأذرع مطويّة، يتمشيان بدائرة، الواحد خلف الآخر، ينشدان مرثيَّةً حزينة، بأصوات متنافرة، ممطوطة:

«حين نحلّق نحو الأنجم،

نطبق أعيننا، فما نبصر...».

كفى! أيها الناس، أيها الناس! ربَّما كنتم تنشدون تراتيل جميلة، لكن اليوم، هذا اليوم هو عشية الأول من أيار، أجمل وأبهج أعياد الإنسان.

أحاول أن أنشد شيئاً جَذِلاً، ولكن قد يبدو ذلك أشدُّ حزناً. فها هو كارليك يستدير مبتعداً و(الأب) يمسح دموعه. مع هذا فإنّي لا أريد أنْ أستسلم وأواصل الغناء وشيئاً فشيئاً ينضمّ الاثنان إليَّ. أخذتْني سِنَة النوم وأنا سعيد.

يطلع صباح الأول من أيار.

تدق ساعة برج السجن الثالثة. لأول مرة أسمعها تدقّ بوضوح. أنا الآن بكامل وعيي، لأول

مرّة منذ اعتقالي. أحسّ بطراوة النسيم تنهمر علَيَّ من النافذة المفتوحة، تمد فراشي القشِّي على الأرض وأعواد القش تضغط على صدري وبطني وكلّ شبر من جسدي يتوجع بألف وجع وأجد صعوبة في التنفس. وفجأة، أرى كل شيء بوضوح، كما لو أن نافذة فتحت: هذه هي النهاية، إذَن إنني احتضر.

لقد استغرقتَ وقتاً طويلاً، أيها الموت، حتى تأتي. ومع هذا فقد كنتُ ما أزال عامراً بالأمل ألّا ألتقي بك إلّا بعد سنين طوال، ما زال الأمل يراودني أن أعيش حياة رجل حرّ ثانية، أنْ أعمل كثيراً، أحبَّ كثيراً، أُغنّي كثيراً وأجوبَ الدنيا، والحقّ أنّي لم أنضج إلّا الآن وحسب، وكان عندي الكثير من القوة. أما الآن، فلم تعد عندي أية قوة. لقد نضبت وها هي توشك على الانتهاء.

لقد عشقت الحياة ومن أجل جمالها دخلت سوح النضال. ولقد أحببتكم، أيها الناس، وكنت سعيداً حين بادلتموني الحب نفسه وكان الألم يعتصرني يوم لم تكونوا تفهمونني. وأنتم يا من أسأتُ إليكم، سامحوني، ومن منحته الفرح فلينسه، فلا شكر على واجب!

أريد ألّا يرتبط الحزن باسمي أبداً. هذه وصيتي لكم يا أبَتِ ويا أمّي ويا أخواتي وأنتِ يا حبيبتي جوستا وأنتم أيها الرفاق ولكل من كان عزيزاً علَيَّ. وإذا كنتم تعتقدون أن بوسع الدموع أن تغسل تراب الأسى، فلتبكوا إذن، ولكن لبرهة لا غير. ولا تتأسّفوا علَيَّ. لقد عشت للفرح وفي سبيل الفرح أموت ولسوف تسيئون إليَّ لو وضعتم ملاك الحزن على قبري.

أول أيار! إنها الساعة التي اعتدنا فيها أن ننهض في الضواحي ونهيِّئ راياتنا. هذه هي الساعة التي تنطلق فيها أولى الكراديس في شوارع موسكو لتشارك في مسيرة أول أيار. وفي هذه الساعة أيضاً تخوض الآن ملايين الناس آخر المعارك من أجل حرية الإنسان ويتساقط ألوف الشهداء في سُوح النضال. أنا واحدٌ من هؤلاء. وأن يكون المرء واحداً منهم، واحداً من المناضلين في هذه المعركة الأخيرة، لَهُوَ أمرٌ رائع.

لكن أنْ يكابد المرءُ سكرة الموت، فهو أمرٌ لا روعة فيه... إنني أختنق ويستحيل علَيَّ التنفُّس. أسمع حشرجة في حنجرتي. ما زال بإمكاني أن أوقظ رفاق السجن. قد يكون علَيَّ أن أرطِّب بلعومي بقطرة ماء... لكن الماء نفدَ كلّه من الجردل. هناك على مسافة ست خطوات لا غير، في التواليت عند ركن الزنزانة، ما يكفي من الماء. ولكن تُرى أعندي من القوة ما يكفي للوصول إليه؟

أزحف على بطني، بهدوء، بمنتهى الهدوء، كأن مجد الموت كله قائم في عدم إيقاظ أحد. لقد زحفت المسافة كلها وها أنا أعبُّ الماء بنَهم في قاع التواليت.

لا أدري كم استغرق ولا أدري كم من الوقت اقتضاني لكي أعود زاحفاً. وها إنّي أغيب عن الوعي ثانية. وأتحسّس النبض في معصمي. أشعر بخدرٍ تامّ. لقد صعد قلبي إلى حنجرتي وها هو يهوي بعنف من حالق وأنا معه، أهوي في مكان سحيق. وكنت وأنا أهوي، أسمع صوت كارليك وهو يقول:

«أبَت، أبَتِ هل تسمع؟ ها هو المسكين يشرف على نهايته...».

في الصباح، جاء الطبيب. لكني لم أعرف ذلك إلا بعد وقت طويل.

جاء وفحصني وهزَّ رأسَه. ثم عاد إلى غرفة العيادة، مزّق شهادة الوفاة التي ملأها باسمي في اليوم السابق وأصدر حكمه كاختصاصي.

«إنَّ له لَبُنيَةَ حصان!».

الفصل الثالث
زنزانة 267

سبع خطوات من الباب حتى النافذة. سبع خطوات من النافذة حتى الباب أعرف هذا.

كم مرة قطعت هذه المسافة على أرضية ألواح الصنوبر من زنزانة سجن بانكراك هذه! ربما في هذه الزنزانة بالذات، سجنت مرة من قبل فقد رأيت بجلاء نتائج السياسة المشؤومة التي أنزلتها البورجوازية التشيكية بالشعب التشيكي. وها هم الآن يصلبون شعبي. والحرس الألمان يتمشّون في نوبة الحراسة أمام باب الزنزانة. وثمة في مكان ما خارج السجن، أقدار سياسة عمياء تحوك كرَّةً أخرى خيوط الخيانة. كم من القرون ينبغي أن تمر على الإنسان قبل أن يفتح عينيه؟ وعبر كم ألوف من الزنزانات ينبغي على الإنسانية أن تشق طريقها إلى الأمام؟ وكم منها ما زال المستقبل يدّخرها؟ إيه يسوع الطفل يا ابن نيرودا، رحلة الإنسان صوب النور ما زالت بعيدة عن نهاية نضاله. ولكن: لا تنَمْ بعد الآن، لا تنَمْ بعد الآن!

سبع خطوات هناك، سبع خطوات إلى الوراء. سرير مطوي عند أحد الجدران. أما عند الجدار الآخر فَرَفٌ ذو لون داكن موحش صُفَّت عليه آنيةٌ من الفخار. أجل، إني أعرف هذا. الآن فقط، تمت مكننة الأشياء لحدّ ما. فهناك تدفئة مركزية واستبدل الدلو بحنفية ماء. ولكن ما تمّ مكننته قبل كل شيء هو الناس، الناس في المقام الأول. وكآلة مؤتمَتة، ما إن يضغط على زر، أي يصرّ بالمفتاح في باب الزنزانة أو يفتح ثقب التجسس، حتى يقفز السجناء من أماكنهم، مهما كان الشيء الذي ينشغلون به، ليقفوا على أهبة الاستعداد، أحدهم خلف الآخر. أو يُفتَح الباب، فيصرخ مسؤول الزنزانة بنفس واحد:

«انتباه! زنزانة مائتان وسبعة وستون، التعداد ثلاثة سجناء بالتمام»[1].

إذن: 267 هي زنزانتنا. ولكن في هذه الزنزانة لا تعمل الأتمتة بدقة متناهية. اثنان يقفزان فقط. أما أنا فأستلقي على فراشي القشيّ تحت النافذة، أنبطح على بطني أسبوعاً، أسبوعين، شهراً، ستة أسابيع – وها إنّي أولد ثانية. اللحظة يمكنني أن أحرك رأسي اللحظة يمكنني أن أرفع ذراعي. اللحظة يمكنني أن أنهض بجسدي على مرفقي، أحاول حتى أن أنقلب على ظهري... وما من ريب فالكتابة عن هذا لَهُو أسرع من مكابدته.

والزنزانة تتعرض للتغيير. فعند باب الزنزانة وضعوا اثنين، لا ثلاثة. هناك الآن اثنان منّا لا

غير. لقد رحل كالرليك، أصغر الرجلين سنّاً – الرجلين اللذين شيّعاني إلى القبر بتراتيل الحداد – وما خلَّفَ بعدَه إلا ذكرى إنسان طيب القلب. لست أراه في الواقع إلّا فيما يشبه الحلم، خلال اليومين الأخيرين اللذَين سبقا رحيله. ها هو يقصّ علَيَّ بأناة قصته مرة بعد أخرى ولا يلبث النعاس أن يداهمني منتصف القصة ذاتها.

اسمه كاريل ماليك. ميكانيكي اعتاد أن يشتغل عامل مصعد في منجم للحديد في مكان ما قرب هودليك. من هناك كان يقوم بتهريب المتفجرات التي كانت المقاومة بحاجة إليها على الجبهة الداخلية. منذ سنتين اعتقلوه وعليه الآن أن يمثل أمام إحدى المحاكم، ربما في برلين، مع عدد كبير آخر ممن اتهموا في القضية ذاتها. من يدري كيف سينتهي الأمر؟ لكاريل زوجة وطفلان، يهيم بحبهم – كان علَيَّ أن أفعل ذلك في النهاية أنت تعرف، لم يكن أمامي سبيل آخر. ساعات طويلة يجلس إلى جانبي ويرغمني على الأكل. لا أستطيع، يوم السبت – أحقاً مضت علَيَّ ثمانية أيام وأنا هنا؟ - ثم ما لبث أن قام بمجهود كبير: قال للحارس الممرِّض بأنّي لم أتناول شيئاً منذ أنْ جيء بي إلى هنا. وها إن الحارس الممرِّض، الحاجب الصحِّي لبانكراك، الدائم القلق وهو ببزة الأس أس والذي من دون إذنه لا يستطيع الطبيب التشيكي أن يكتب أية وصفة ولا حتى بحبة أسبرين واحدة، ها هو يأتيني بنفسه بإناءٍ من الحساء المغذّي، وينتظرني إلى أن أكون قد انتهيت منه كله. ويراود كارليك شعور بالرضى عن النفس لهذا التوفيق وما إن يكون اليوم التالي قد حان، حتى يصبّ لي بنفسه حصته من حساء يوم الأحد ويقدمها إليّ.

لكن الوضع لا يستمر طويلاً، ذلك أن لثّتي التي سحقت تماماً لا تمكنني حتى من مضغ البطاطا المهروسة في هريس يوم الأحد، ويرفض بلعومي المتقلّص ابتلاع أية لقمة مهما كانت ليّنة.

«إنه يرفض أن يأكل حتى الهريس، حتى الهريس!»، ينوح كارليك ويهز رأسه بأسى وهو يراقبني.

ومن ثم يأتي على حصتي بنهم، ويتقاسمها مناصفة مع «ابني».

إيه أنتم، أنتم يا من لم تعرفوا أبداً طعم الحياة عام 1942 في بانكراك، هيهات أن تعرفوا، ولن تعرفوا أي شيء هو الهريس! حين تقرقر المعدة من الجوع عادة، حتى في أسوأ وضع، وحين تذهب للحمام الهياكل العظيمة المغطاة بجلود البشر، وحين يسرق رفيق شيئاً من حصة

رفيقه، بلمح البصر، حتى مجرد مرقة خضار يابسة مقززة ممزوجة بعصير الطماطم الهزيل، تبدو ترفاً كبيراً، شهياً وحتى في أسوأ تلك اللحظات، جرت العادة أنْ يفرغ سجناء الخدمة مرتين في الأسبوع – الخميس والأحد – ملء مغرفة من البطاطا في قصعتك، ويسكبوا عليها ملء ملعقة من صلصة الهريس مع نتف صغيرة من اللحم. وكان مذاق ذلك لذيذاً، لا بل أكثر من ذلك. كانت تذكيراً ملموساً بالحياة الإنسانية، شيئاً متحضِّراً، شيئاً طبيعياً وسط القساوة الشاذّة لسجن الجستابو، شيئاً كان الحديث يجري عنه بعذوبة وجذل – أواه، من يمكنه أن يتصور أية فضائل سامية كان الحديث يجري عنه بعذوبة وجذل – أواه، من يمكنه أن يتصور أية فضائل سامية يمكن أن تعطيها لنا ملعقة ملأى بصلصة اللحم المتبّلة بأهوال القرب الدائم من الموت! سرعان ما أصبحت قادراً على أن أفهم دهشة كارليك. كنت أرفض أن آكل حتى الهريس. ولم يكن هناك من شيء يقنعه بموتي الوشيك أكثر من ذلك.

الليلة التالية، في الساعة الثانية، أيقظوا كارليك. وكان عليه أن يستعد للرحيل خلال خمس دقائق، كأنه لن يغيب إلا لحظة واحدة، كأنه لم يكن على وشك القيام برحلة قد تمتد حتى نهاية عمره، إلى سجن آخر، إلى معسكر اعتقال، إلى ساحة الإعدام، مَن تُرى يعلمُ إلى أين. ومرة أخرى، ركع إلى جانب فراشي القشيّ وأحاط رأسي بذراعيه وقبَّلني – وانطلقت صيحة خشنة من سجَّان في بزته الرسمية وهو في الرواق حتى يبرهن أن المشاعر لا حقَّ لها في الوجود في بانكراك وهرع كارليك عبر الباب وصرّ القفل ولم يبقَ في الزنزانة إلا نحنُ الاثنين.

هل سيُقدَّر لنا أن نلتقي ثانية يا فتى؟ والوداع التالي، أَمَوعدُه قريب؟ ومن منا نحن الاثنين سيسبق رفيقه؟ وإلى أين؟ ومن سيناديه؟ سجان ببزة أس أس؟ أم الموت، الذي لا بزة له؟

ليس ما أكتبه الآن إلا رجع تلك التأملات التي ظلّت باقية معنا منذ أول وداع. لقد مرّ عام على ذلك ومع هذا فإن تلك الأفكار التي اقترنت بفراق رفيقنا غالباً ما كانت تتردد بإلحاح. والشخص الآخر المعلق عند باب الزنزانة تبدل مرة إلى ثلاثة ومرة إلى اثنين وأخرى إلى ثلاثة. اثنين، ثلاثة، اثنين، ووصل معتقلون آخرون ثم رحلوا – إلّا هذين الشخصين، اللذين بقيا في زنزانة 267 ذلك اليوم، ما برحا يجلسان معاً بوفاء. «أَبَتِ» وأنا.

«أَبَتِ» – معلم في الستين، اسمه جوزيف بيسيك، عميد المعلمين. اعتقلوه قبلي بخمسة وثمانين يوماً بتهمة التآمر ضد الرايخ لأنه قدّم مشروعاً لإصلاح المدرسة التشيكية الحرة.

إن «أبَتِ»...

ولكن كيف ستكتب عن ذلك يا بني؟ إنه لعمل شاق. رجلان، زنزانة واحدة وعام واحد! آنذاك كان القوسان حول اسم «أبَتِ» قد اختفيا – لقد أصبحا عندها رفيقَي السجن، وهما بعمرين مختلفين؛ أبٌ وابنٌ في واقعِ الأمر، وفي ذلك الوقت تبادلا معاً العادات والتعابير المفضلة وحتى نبرة صوتينا – حاولوا أن تميزوا اليوم ما هو لي وما لأبَتِ، ما الذي حمله إلى الزنزانة وما الذي حملته أنا إليها!

قضى الليل ساهراً بقربي ليلة التراتيل وأبعد الموت بالدموع والكمّادات البيضاء، كلّما توفّرت. وبنكران ذات نظّفَ القيح عن جراحي وما بدر عنه أي يوم أبداً ما يدل على شعوره برائحة العفن المنبعثة من فراشي القشيّ. لقد غسل ورتق خرق قميصي الذي راح ضحية لأول تحقيق أجروه معي. وحين أصبح القميص لا رجاء منه أبداً، ألبسني ثيابه الداخلية. وهو من حمل إليَّ مرَّة زهرة الربيع وأوراق عشب خاطر بجمعها أثناء نصف ساعة الرياضة الصباحية في باحة سجن بانكراك. وكان يتابعني بعينين رؤومتين كل مرة كنت أُستَدعَى فيها للتحقيق، ليضمّد جراحي الجديدة بكمّادات جديدة حين أعود. وحين يأخذونني إلى التحقيق ليلاً، لم يكن لينام أبداً حتى أعود، فيسحبني إلى فراش القشّ، وبرفق يدثّرني بأغطيتي.

هكذا كانت بداياتنا وما غيرت حياتُنا المشتركة ذلك، حتى عندما أصبح بإمكاني الوقوف على قدمي لأسدد ديون الابن.

لكنك، يا بني، لن تستطيع أبداً أن تكتب كل شيء هكذا، دفعة واحدة: فذلك العام، كانت للزنزانة 267 حياة حافلة. وكل ما عاشته، عاشه أبَتِ بطريقته الخاصة. لا بد لذلك أن يقال. والقصة ما انتهت بعدها (وهذا ما يحمل معه في الظاهر بارقة أمل).

للزنزانة 267 حياة غنية. كل ساعة ينفتح الباب وتبدأ حملة تفتيش. هذه هي الرقابة الصارمة المفروضة على مجرمٍ شيوعيّ خطير، لكنه قد يكون الفضول المكشوف أيضاً. فغالباً ما يموت هنا من لم يكنْ يُقصَدُ موتُهم. ولكن نادراً ما حدث أن بقي على قيد الحياة من كان الكل يتوقع موته. والسجانون من الأجنحة الأخرى يأتون هم أيضاً إلى هنا، يتبادلون الحديث أو يزيحون بصمت الأغطية ويتلذذون بمعاينة الجروح بعين خبيرة ووفقاً لما جُبِلوا عليه، فإنهم يدلون بنكات ساخرة أو يتحدثون بنبرة أكثر وداً. أحد هؤلاء – وقد أطلقنا عليه اسم (الشمام) – غالباً ما يتردد أكثر من غيره، يأتي وعلى وجهه تكشيرة عريضة ويتساءل عما إذا

كان «الشيطان الأحمر» بحاجة إلى شيء. كلّا، شكراً، إنه لا يحتاج إلى أي شيء. بعد أيام قليلة، يكتشف (الشمام) أن الشيطان الأحمر بحاجة إلى شيء حقاً: أن يحلق. وهكذا يروح ويأتي بحلاق. هو ذا أول سجين ألتقيه من غير الذين في زنزانتي: الرفيق بوشيك. وتبرهن الخدمة الطيبة التي أدّاها (الشمام) على أنها بركة مزدوجة. يسند أبَتِ رأسي ويركع الرفيق بوشيك جنب فراشي القشي وهو يحاول أن يشق طريقاً في دغل الزّان من لحيتي بشفرة عمياء. يداه ترتعشان والدموع تملأ مآقيه. كان موقناً أنه إنما يحلق ذقنَ جثّة. وأحاول أن أعزّيه:

«تشجع أيها الأخ! إذا كنت قد صمدتُ في تحقيق قصر بيتشيك، فلا أحسب أنّي عاجزٌ عن الصمود كما ينبغي أمام حلاقتك».

غير أننا، معاً، ما عدنا على ذلك القدر من التحمل وكان علينا أن نستريح، هو وأنا.

بعد يومين، تعرفت على سجينين آخرين. كان صبر الضباط في قصر بيتشيك قد نفد، فأرسلوا في طلبي. ولأن الحارس الممرض يكتب على أوراق الاستدعاء كلّ يوم: «في وضع لا يسمح بنقله»، فقد أصدروا أوامرهم بضرورة جلبي مهما كانت الأسباب. وهكذا قدم سجينان، بملابس السجن الرسمية ومعهما نقّالة وبصعوبة بالغة ألبسني أبَتِ وحملني الرفيقان إلى النقّالة وانطلقا بي. كان أحدُهما هو الرفيق سكوريبا، الذي سيصبح فيما بعد الأب اليقظ للرواق كلّه. لقد انحنى علَيَّ حالَ أنْ انزلقتُ من السطح المقدَّس للنقّالة، أثناءَ أنزلونا السلم وقال لي: «اصمدْ!».

(وأضاف بهمسٍ نصائحَ قيِّمة).

هذه المرة، لم نتوقف عند مكتب الاستقبال. وواصلا التقدم بي، خلال الرواق الطويل، نحو الخارج. كان الرواق يغصّ بالناس – فاليوم خميس، وذوو السجناء يأتون لأخذ الغسيل – والكل يتطلّع إلى موكب الحداد هذا – وقد امتلأت عيونهم بنظرات العطف. ولم يكن هذا يعجبني. ولهذا السبب أرفع يدي إلى رأسي وأضم قبضتي. ربما يرونها، فيعرفون أنّي أحيّيهم. قد تكون مجرد إشارة حمقاء ولكن ما كان بإمكاني عمل أي شيء آخر. وما عاد عندي من القوّة ما يكفي.

في باحة سجن بانكراك وضعا النقالة في شاحنة، اثنان من رجال الأس أس يجلسان مع السائق وآخران مثلهما أيديهما على قرابي مسدسيهما المحلولين، يقفان على رأسي وأقدامهما منفرجة – وننطلق. لا، لم يكن الطريق مثالياً تماماً – حفرة بعد الأخرى – وقبل أن نقطع

مائتي متر، فقدت الوعي، لقد كانت رحلة مضحكة، عبر أزقة براغ: شاحنة بحمولة خمسة أطنان، مخصصة لثلاثين سجيناً، تصرف البنزين من أجل نقل سجين واحد وفي المقدمة رجلا الأس أس واثنان مثلهما في المؤخرة، يحملقان بهيئةٍ فرّيسيّة، مسدّساهما في يديهما، يحرسان جثّة، مخافة أن تهرب.

في اليوم التالي تكرَّرت المهزلة. لكني صمدت هذه المرة حتى قصر بيتشيك. ولم يستغرق التحقيق وقتاً طويلاً. لقد تحسّس الضابط فريدريش جسدي دون اكتراث. ومرة أخرى حملوني عائدين وأنا فاقد الوعي.

وتمر الأيام وما عدت أشك الآن بأنني على قيد الحياة. لقد ذكّرني الألم – شقيق الحياة الطبيعي – بهذا بجلاءٍ تامّ. وبات سجن بانكراك يعلم هو الآخر بأنني ما بقيت على قيد الحياة إلّا بسبب خطأ ما. وبدأت أولى التهاني تصل إلي:

تهاني تقرع على الجدران السميكة أو تحملها عيون السجناء الخدم حين يوزّعون الطعام. كانت زوجتي وحدها التي لا تعرف شيئاً عني، لقد عاشت وهي وحيدة في زنزانتها على مبعدة طابق واحد لا غير تحتي، ومجرّد ثلاث زنزانات أو أربع بعيداً عني، موزَّعة بين القلق والأمل إلى أن أسرَّت لها إحدى جاراتها خلال الرياضة الصباحية بأنني قد انتهيت وأنني أسلمت الروح في الظاهر جرّاء الجراح التي لحقتني أثناء التحقيق. بعدها هامت في ساحة السجن ودارت الدنيا من حولها ولم تشعر بسجّانتها وهي تعزّيها بالضرب على وجهها، محاولة أن تعيدها إلى الصف الذي هو رمز انتظام حياة السجن. ترى ما الذي كان بوسع عينيها الواسعتين، الطيّبتين أن تريا وهما تحدّقان، دون دموع، بجدران زنزانتها البيضاء؟

في اليوم التالي وصلتها شائعة أخرى: كلّا، أنا لم أُضرَبْ حتى الموت تماماً، لكني بسبب عدم قدرتي على تحمل الألم – شنقت نفسي في زنزانتي.

إبان ذلك، كنت أنا منبطحاً على فراشي القشي البائس وأستدير بعناد على جنبي كل مساء وصباح، لكي أنشد لجوستينا الأغاني التي تعشقها.

كيف يمكن ألّا تسمعها وقد شحنتها بكل هذا القدر من المشاعر؟

اليوم لا بد أنها عرفت، لا بد أنها سمعت اليوم، رغم أنها أبعد اليوم مما كانت بالأمس. اليوم حتى السجانون يعرفون وقد اعتادوا الآن، أن الزنزانة 267 تغنّي. لقد غنّيت طوال حياتي. ولست أرى سبباً يحملني على أن أتوقف عن ذلك، وأنا في النهاية تماماً، حين تصبح الحياة

في ذروة توترها. والأب بسيك؟ أوه، إنه حالة استثنائية! إنه يهيم حباً بالغناء. ورغم أنه لا يملك لا أذناً موسيقية ولا صوتاً ولا ذاكرة موسيقية، لكنه يهيم بالأغنية بذلك الجلال ووفاء المحب، يجد فيها غبطة لا حدَّ لها، حتى أنّي لأكاد لا أسمعه وهو ينتقل من مقامٍ إلى آخر. وهو يغنّي بعناد مقامَ «جي» حين يكون سمعك يطرب لأغنيةٍ من مقام «إي». وهكذا نغنّي معاً حين يتملّكنا الخوف. نغنّي حين يكون النهار بشوشاً. نغنّي لنودّع رفيقاً راحلاً قد لا نلقاه ثانيةً، نغنّي ونحن نهلّل للأخبار الطيّبة من ميادين القتال الشرقية، نغني للسِّلْوان، نغنّي للفرحة، مثلما غنّى الناس في كل العصور وسيغنّون طالما همْ بَشَر.

لا حياة دون أغنية كما لا حياة دون شمس. نحن أحوج ما نكون هنا إلى الأغنية ضعفين لأن الشمس لا تصلنا. فالزنزانة 267 تطلّ على الشمال وفي أشهر الصيف فقط – تمرّ الشمس لحظاتٍ وهي تغرب لترسم ظلَّ قضبانٍ لنافذة على الجدار الشرقيّ – وفي تلك اللحظات ينحني الأب على السرير ويتطلّع إلى هذه الشمس الزائرة العابرة، وعندها يمكنك أن تشهد أعمق نظرة حزن. الشمس! بأي سخاء تشعّ هذه الساحرة المستديرة! وأية عجائب تصنعها لعيون البشر! ما أقدر ما تعيش الناس تحت الشمس. ولكنها ستشرق وتظلّ تشرق وسيعيش البشر في فيض سناها. ما أجمل أن يدرك الإنسان هذا، ومع ذلك فلَكَم يودُّ الإنسانُ أن يعرف شيئاً آخر أقلَّ أهمية من ذلك بكثير: وهل ستشرق علينا نحن أيضاً؟

زنزانتنا تطلّ على الشمال. في الصيف وحده – حين يلملم النهارُ ذيولَه – نشاهد أحياناً الشمس وهي تغيب. أوّاه أبَتِ، أودُّ من القلب لو أرى الشمس تشرق ولو مرة واحدة أخرى!

- بالألمانية زنزانة رقم مائتين وسبع وستين – التعداد ثلاث سجناء بالتمام.

الفصل الرابع
غرفة أربعمائة

البعثُ من الموت مسألةٌ غريبةٌ نوعاً ما. غريبة لحدٍّ تستعصي على الوصف. حين تكون قد نمت جيداً. العالم جذّاب في نهار جميل، عندما تكون شبعت نوماً كأنما كان أجمل، وأنك لم تنم مثلما نمت الآن. وتحسب أنك تعرف مسرح الحياة جيداً. لكن هذا أشبه بالنور حين يشعله الفنِّيُّون دفعةً واحدة، يسطع الزجاج، وفجأة ترى المسرح وقد أُنيرَ برمَّته فتحسب أنك تبصر جيداً. لكن هذا أشبه بمن يضع على عينيه منظاراً مركّباً على ميكروسكوب. الانبعاث من الموت مجرَّد مسألةِ ربيعٍ كمثل الربيع الذي يمنحك دهشةً غير متوقَّعة حتى في أكثر المشاهد التي اعتدْتَ عليها.

وهذا ما يقع حتى حين تعلم أن ذلك لن يدوم إلّا لحظة، حتى عندما يكون ما يحيطك بمثل بهجة وغنى ما أنت عليه في إحدى زنزانات بانكراك. في يوم، إذن، يحملونك إلى الدنيا ثانية. وفي يومٍ يطلبونك للتحقيق دون نقَّالة. ومع أنك تحسب ذلكً محالاً. فسوف توفَّق بطريقة ما. كان للرِّواق حاجزٌ وللسلَّم درابزين وأنتَ في الواقع تزحفُ على أربع لا على اثنتين وفي الأسفل يتلقَّفُكَ رفاقُ السجن ويوصلونك إلى شاحنة السجن ثم تجد نفسك جالساً، عشرة، اثنا عشر رجلاً في زنزانة مظلمة تسافر، وجوهٌ جديدة تبتسم إليك وأنت تبتسم لها. أحدهم يسرُّك بشيء ما همساً وأنت لا تعرف من يكون، وتشد على يد أحدهم وأنت لا تعرف من يكون وما إن تترنَّح الشاحنة في مدخل قصر بيتشيك، حتى يحملَك الرِّفاقُ وتلجَ غرفاً فسيحة ذات جدران عارية، خمس مصطبات، تصطف الواحدة تلوَ الأخرى، يجلس عليها أشخاص متأهِّبون، أيديهم على ركبهم، يحدّقون بسكون إلى الجدار الفارغ أمامهم... وهذه، يا فتى، قطعة من عالمك الجديد، تدعى السينما.

إنتر ميتزو الأول من أيار 1943

اليوم هو الأول من أيار 1943. والسجَّان الذي في الواجب شخصٌ مأمون الجانب. ولهذا يمكنني أنْ أكتب. فأيُّ حظٍّ سعيد هذا! أنْ تكون صحفيّاً شيوعيّاً مرة أخرى حتى ولو لبرهة قصيرة وتكتب تقريراً اليوم من استعراض الأول من أيار، عيد القوى المناضلة في سبيل عالم جديد!

لا تنتظر أن تسمع مني حديثاً عن الرايات الخفَّاقة. فشيءٌ من هذا القبيل لا وجود له. كما لا يمكنني أن أسرد عليك حتى طرفاً من النشاطات المحرّكة التي يطيب سماعها. اليوم كل شيء أبسط بما لا يقاس. فلا الأمواج الصاخبة، التي تتفجَّرُ بعشرات الألوف، التي كنت أراها في السنين الماضية وهي تتدفّق في شوارع براغ، ولا بحرُ الملايين المهيب يموج في الساحة الحمراء بموسكو. هنا لا يمكنك أن ترى الملايين ولا حتى المئات. هنا ترى فقط حفنةَ رفاقٍ رجالاً ونساء. ورغم هذا، فأنت تشعر أنَّ هذا لا يقلّ شأناً عن ذلك لأنه استعراض قوة اجتازت لتوّها لظى النيران ولم تتحوّل إلى رماد، بل إلى فولاذ. إنه استعراض في الخنادق أثناء المعركة. وفي الخنادق نرتدي لباس القتال.

كل شيء موجود في مثل هذه التفاصيل الصغيرة. وما أدراني إن كنت، يا من ستقرأ هذا يوماً ما، ستفهم ذلك، أنت الذي ما عشت هذا أبداً. ولكن جرب أن تفهم. صدقني، هناك قوّة في هذا.

تحيّة الصباح من الزنزانات المجاورة التي تنقرُ سُلَّمَين من بيتهوفن، يفيضان اليوم بحبور الاحتفال، وبثقةٍ أعظم والجدار يردِّدهما بنبراتٍ أعلى. نرتدي أفضل ما عندنا. ويحدث الشيء نفسه في الزنزانات كلّها.

وحين جاء الإفطار كنّا بكامل حلّتنا. أمام باب الزنزانة المفتوح يصطفّ سجناء الخدمة بالخبز والقهوة المرّة والماء. ويوزّع علينا الرفيق سكوريبا ثلاثة أرغفة بدلاً من اثنين. إنه يحيي أوَّل أيّار بطريقته: تحيّةٌ مؤثِّرة من قلبٍ رؤوم. ومن تحت الأرغفة تضغط الأصابع على بعضها. فالكلام محرَّم، حتى العيون مراقبة. لكن ألا يمكن للبُكم أنْ يتحدّثوا بأناملهم بما يكفي من الوضوح؟

تحت نافذة زنزانتنا، تُسرع النسوة في الباحة إلى نصف ساعة الرياضة الصباحيّة. أصعدُ الطاولة وأُطِلُّ من القضبان الحديدية. قد يَرَيْنَني إذا حالفني الحظّ. وقدْ فَعَلْن. ها هنَّ يرفعْنَ قبضاتهن تحيةً. وأرد التحيّة لهن. في الساحة، تحت، تبدو الأشياء كلّها حيّة اليوم، مختلفةً تماماً، أكثرَ بهجة وحيويّة من أي يوم آخر. والسجّانة لا ترى شيئاً، أو أنها قد لا تكون راغبة في رؤية أيّ شيء. وهذا شيءٌ آخر لا تراه إلا في احتفال الأول من أيار.

وتحين الآن نصف ساعتنا الصباحية. وأكون أنا على رأس الرتل. إنه الأول من أيار، أيها الرفاق وعلينا أن نبدأ بطريقة تختلف عن سائر الأيام، حتى لو بدا الحرس مندهشين. التمرين

الأول، واحد اثنين، واحد اثنين، المطرقة تضرب، والتمرين الثاني: الحصاد. المنجل والمطرقة.

وبقليل من الخيال، سيفهم الرفاق الفكرة. المنجل والمطرقة. أتطلّع حواليّ. ها هم يبتسمون ويكرّرون التمرين بنشاط متناهٍ. لقد عرفوها. هيا، أيّها الرفاق، هو ذا حفلُنا للأوّل من أيار. وهذا المشهد الإيمائيّ، إنه مَشهدُنا للأوّل من أيار، نبقى أمناء له حتى الموت.

نعود إلى الزنزانة. الساعة التاسعة. الآن تدقّ ساعة الكرملين العاشرة ولتوّه ينطلق الاستعراض في الساحة الحمراء. أبَت، نحنُ ماضون معهم! وها هُم ينشدون الأمميّة الآن، في هذه اللحظة يتردّد نشيدُ الأممية في أَرجاء الدنيا كلّها، فليتردّدْ إذنْ في زنزانتنا كذلك. ونشرعُ في الغناء. نشيدٌ ثوريّ يجلجل بعد آخر، إننا نغني لأننا لا نريد أن نكون لوحدنا. لسنا وحيدين، نحن من صلب أولئك الذين ينشدون الآن بحرية، ولكنهم مثلنا في المعركة، سواء بسواء...

يا رفاقَ السّجنِ

وزنزاناتِ التعذيب الباردة،

أنتم معنا، أنتم معنا

وإنْ لستم هنا معنا...

أجلْ، نحنُ معكم.

وهكذا رسمنا نحن، نزلاء زنزانة 267، النهاية الظّافرة لاحتفال الأول من أيار 1943. ولكن أهذه هي النهاية يا تُرى؟ إذن ما بال تلك الحاجبة من قسم النساء، تجتاز الباحة هذا المساء وتصفر مارش الجيش الأحمر ونشيد «الأنصار» وغيرهما من الأغاني السوفياتية، لتبعث في نفوس نزلاء الزنزانات العزيمة؟ وما بالُك بذلك الرَّجل، ببزّة شرطيٍّ تشيكيّ، يأتي بقلمٍ وورقٍ وها هو في الواجب الآن يفحص الرواق لكي يتأكد ألّا يفسدَ علَيَّ كتابتي متطفّلٌ ما؟ وما بالُك بذلك الرَّجل الآخر الذي شجَّعني حقّاً على أن أكتب هذا، هذا الذي يأخذ هذه الصفحات ويخفيها بعناية، كي يُقَدَّرَ لها أن تظهرَ للوجود عندما يحين الوقت؟ إنهم يخاطرون بحياتهم ثمناً لقصاصة الورق هذه. إنهم يجازفون برؤوسهم ليكونوا جسراً بين الحاضر المُسَيَّج بالقضبان وحرِّية الغد. إنهم يناضلون. إنهم يناضلون بوفاء وشجاعة كلٌّ من موقعه، وعلى ساحة معركته وبالوسائل التي يملكها. إنهم متواضعون، مجهولون لا يعرفون

التردُّد أبداً، إلى الحدّ الذي لا تعرف فيه شيئاً عن الصراع الضاري الذي يخوضونه إلى جانب أصدقائهم وحظُّهم أنْ يسقطوا صَرعَى فيه كمِثلِ حظِّهم بالظَّفَر فيه.

عشرُ مرّات، عشرون مرة، شاهدت أنت جيش الثورة في مسيرات الأول من أيار. شيءٌ عظيم. ولكنك في النضال وحده تتعلّم كيف تقدّر القوّة الحقيقية لهذا الجيش الذي لا يمكن سحقُه. إن الموت لأبسَطُ ممّا حسبت والبطولةُ لا هالةَ لها. أما النضال فإنّه ما برح أشد ضرواةً مما حسبت، ولكي تصمد فيه وتواصله حتى النصر فالأمر يتطلّب عزيمة لا حدَّ لها. كل يوم ترى ذلك في حركته، لكنك لا تدرك ذلك على نحوٍ تامّ دوماً، إذ يبدو كلُّ شيء أمراً عادياً لحدٍّ كبير. وها أنت اليوم تدرك هذا ثانيةً.

في استعراض الأول من أيّار 1943

لقد قطع الأول من أيار 1943 مؤقّتاً مجرى هذه الحكاية. وهكذا هو الحال. ففي أيام الاحتفالات يتذكَّر المرءُ الأمور بطريقة أخرى تقريباً، فالفرح الذي يَرِينُ على اليوم ربما كان يشوِّه ذكرياتي.

إن «سينما» قصر بيتشيك ليست بالتأكيد أمراً مسلّياً. فهي غرفة انتظار لمكان التعذيب الذي لا تسمع فيه إلا الأنين وصرخات الرعب التي تنطلق من الرفاق الآخرين. وأنت لا تدري ما ينتظرك، إذ ترى الناس تخرج من هنا معافاة، قويّة، ممتلئة بالحياة وبعد ساعتين أو ثلاث من التحقيق تعود وهي مشوَّهَة ومحطَّمة. وأنت تسمع من ينادي على التحقيق بصوت مرتفع، وما إن تمرّ ساعة حتى يتناهى إليك صوتٌ كسير، متيبِّس من الألم والحُمّى، يعلنُ عودةَ صاحبه. وثمَّة ما هو أسوأ من ذلك: أنت تشاهد أناساً يذهبون إلى التحقيق وقد ارتسمت عليهم أمارات المهابة والثبات. لكنهم حين يعودون لا يسعهم رفع رؤوسهم والتطلُّع في عينيك. في مكان ما من غرفة التعذيب هناك، ربما مرَّتْ لحظةُ ضعف بعينِها، لحظةٌ واحدةٌ من التردُّد، ومضةُ خوفٍ أو توقٍ للحفاظ على الذات، واليوم أو غداً سيصل آخرون هنا ليذوقوا صنوفَ الأهوال من جديد، أناسٌ جُدد سلّمَهم إلى العدوّ أحدُ رفاقِ النضال. إنَّ مرأى الناس الذين يعذّبهم ضميرُهم لأَشَدُّ هَولاً مِن مرأى أولئك الذين عُذِّبوا جسدياً. وإذا كانت لك بصيرةٌ فتَحها الموتُ الذي يحوم حولك، وإذا كانت المرارة قد طبعت مشاعرك بعد أنْ بُعِثْتَ من الموت، فإنك ستدرك بالفطرة، من دون كلمات، مَنْ تذبذبَ ومَن يمكن أنْ يكون قد أضحى خائناً أو مَن في ركنٍ ما مِن روحِهِ يمكن أن تكون قد خامرَتْه فكرةُ أنّ السماح للنفس بشيءٍ من الراحة والإدلاء باعترافٍ على آخرِ رفاقِهِ المناضلين قد لا يكون على تلك الدّرجة من السوء.

الضّعفاء المساكين! أيّة حياةٍ هذه التي يمكن أنْ تُشتَرى بحياة رفيق آخر؟ ربما لم تكن هذه أوّل خاطرة راودتْني حين جلستُ في «السينما» المرّة الأولى. لكن هذه الفكرة غالباً ما تعاودني. ولا ريب أنها قد عاودتْني ثانيةً هذا الصباح ولو في جوٍّ مختلفٍ بعض الشيء، في وسط كان من أكثر مصادر المعرفة حيوية: «غرفة 400».

ما مكثتُ طويلاً في «السينما»، ساعة ربما أو ساعة ونصف. ثم سمعت من خلفي من ينادي باسمي. بعدها جاء رجلُان بملابس مدنيّة، يتحدثان التشيكية، اقتاداني إلى المصعد حتى الطابق الرابع إلى أن بلغنا غرفة واسعة كتب على بابها رقم:

400

أول الأمر، جلست وحيداً وهم يراقبونني، في الخلف تماماً وعلى الكرسي المنعزل قرب الجدار، أخذت أتطلع حولي يراودني شعور غريب لرجلٍ يحسّ بأنه قد مرّ من قبل بشيء كهذا. هل جئت هنا من قبل؟ كلّا. ومع هذا، فإني أعرف ذلك. أعرف هذا المكان. لقد حلمتُ به. رأيتُه في حلم رهيبٍ ومحموم حَوَّل شَكلَ المكان وشوَّهَهُ على نحوٍ مخيف ولكنّه لمْ يستطع أن يمحوه. وها هو المكان يبدو الآن أنيساً، يفيض بنور الصباح، الألوان المشرقة، ومن نوافذه العريضة ذات القضبان الخفيفة تلوحُ كنيسة تين وهضاب ليتنا الخضراء وقصر هرادشين. لقد كانت الغرفة في حلمي مكاناً معتماً، دون نوافذ إلّا من نورٍ شاحب وَسِخ تبدو الناس فيه كالأشباح. نعم، كان هناك أناسٌ فيه. أما الآن فالمكان خالٍ والمصطبات الست، التي تصطف إحداها خلف الأخرى، تبدو مثل مرجٍ جَذْل من الهندباء وأزهار العشب الصفراء. كان المكان، في حلمي، يغصّ بالجالسين هنا على هذه المصطبات، الواحد يلتصق بالآخر، وجوههم شاحبة ومدمّاة. وهناك، عند الباب تماماً، يقف رجلٌ ذو عينين تمتلئان بالأسى وهو ببزّة العمل الزرقاء، يلوب من أجل جرعة ماء، يريد أن يشرب الماء، يشرب ثم يهوي على الأرض، على مهل، كأنه ستارة تنسدل.

أجل، لقد كان الأمر على هذا النحو. لكني أعرف الآن أنَّ ذلك لم يكن حلماً. فقد كانت تلك التجربة الرهيبة المحمومة أمراً واقعاً.

حدث ذلك ليلة اعتقالي، أثناء التحقيق الأول. ربما اقتادوني إلى هذا المكان ثلاث مرات، ربّما عشر مرات – أنّى لي أن أعرف كم مرّة؟ – كلما أرادوني أن أستريح أو حين كانوا يمارسون التعذيب مع آخرين. كنت حافي القدمين، وأذكر بلاط الأرضية الباردة، تنعش

برودته اللذيذة باطن قدمي المكدودَين.

كانت المصطبات آنذاك يجلس عليها عُمّال من منشآت الجونكر. كانوا الغنيمة المسائية للجستابو. أما ذلك الرجل الذي كان يقف عند الباب بملابس العمل الزرقاء فهو الرفيق بارتون من خلية المعمل في منشآت الجونكر، السبب غير المباشر لاعتقالي. أقول هذا، دون أن يكون هناك من ينبغي إلقاء المسؤولية عليه عن المصير الذي أَلْتُ إليه. فلم تكن هناك خيانة أو جبن من جانب أيّ رفيق. كان الأمر مجرَّد قِلَّة يقظة وسوء حظ، إذ كان الرفيق بارتون يبحث عن صلة لخليّتِه بالقيادة. غير أنّ صديقَه، الرفيق جيلينيك، الذي تجاهل قواعد العمل السرِّي، وعدَ بترتيب هذه الصِّلة دون أنْ يعرضَ الأمر علَيَّ لكي أقوم أنا بترتيب المسألة دون أن تكون له علاقة بالأمر كلّه. كان هذا واحداً من الأخطاء. أما الآخر، وهو القاتل، فكان سببه ثقةُ الرفيق بارتون بجاسوسٍ اسمه دفوراك، إذ أطْلَعَ الرفيقُ بارتون هذا الرجل على اسم جيلينيك – ومن هنا سِرُّ اهتمام الجستابو بأسرة جيلينيك وليس نتيجة نشاطها الرئيس الذي كانت تؤدّيه بصورة جيدة مدّة عامين، إنما بسبب خدمة صغيرة، انحرفَتْ قيدَ شعرة عن ضرورات العمل السرّي. والواقع أنّ الجستابو في قصر بيتشيك كان قد قرّر اعتقال أسرة جيلينيك تلك الليلة بعينها التي كنت فيها على موعد في شقّتها، وما القوة التي جاؤوا بها لاعتقالهم إلّا مصادفة محضة، حيث لم تكن هذه نيّة الجستابو أصلاً. فقد كان من المقرّر إلقاء القبض على أسرة جيلينيك في اليوم التالي، ويمكن القول في الواقع إنّ الجستابو داهمَ شقتهم عفوَ الخاطر تقريباً، لمجرّد «استنشاق نفسٍ من الهواء» بعد الكشف الناجح للخلية في منشآت الجونكر. ولم تكن دهشتنا، على أيّة حالٍ، لوصول الشرطة بأقلّ من دهشتهم من اعتقالي هناك. فلم يكونوا يعرفون عندها حتى من هو الشخص الذي اعتقلوه. ومن يدري إن كانوا سيعرفون أي شيء عنّي أبداً، إن لم يكن معي في الوقت نفسه، إلّا أنّي لم أتوصّل إلى معرفة هذه الاستنتاجات الأولى في غرفة 400 إلا بعد فترة من الزمن. وحينها لم أعُد بعدُ وحيداً. فقد كانت المصطبات إبان ذلك والجدران من حولي قد غصَّت بآخرين والساعات تمرّ حافلةً بالمفاجآت. مفاجآتٌ غريبة لم أفهمها، ومفاجآتٌ شرّيرة فهمتُها تماماً كلّها.

غير أن المفاجأة الأولى لم تكن من هذين الصنفين. كانت مفاجآت صغيرة، معرفة لا تعني شيئاً لأحد.

المفاجأة الثانية. يتقاطر أربعةُ أشخاص في الغرفة برتل واحد، يلقون التحية على المدنيين في وجبة الحراسة باللغة التشيكية – وعلَيَّ أيضاً. جلسوا إلى الطاولات وفتحوا محافظهم،

وأشعلوا سجائرهم بحرية... بحرية تامة كأنهم موظفون هنا. ولكني كنت أعرفهم بالطبع، أعرف ثلاثة منهم على الأقل، لا يمكن قطعاً أن يكونوا عملاء للجستابو – أم يمكن أن يكونوا؟ هم أيضاً؟ لكن هذا هور، الأمين السابق للحزب والنقابات، شخص متهوّر بعض الشيء ولكنه وَفِيّ. كلّا، لا يمكن هذا. وهذه آنكا فيكوفا، ما زالت كعهدي بها بمنتهى الجمال والشجاعة رغم شعرها الأبيض، مناضلة صلبة، عنيدة. كلّا، لا يمكن هذا. وذاك هو فاسيك، عامل منجم من شمال بوهيميا أصبح بعدها أميناً لمنظمة قضاء. كيف يمكن لي ألّا أعرفَه. بعد تلك اللحظات المروعة التي مرَرْنا بها معاً في الشمال أن يكسروا ظهره؟ كلّا، لا يمكن هذا. ولكن ما الذي يبغونه هنا؟ وماذا جاؤوا يفعلون في هذا المكان؟

لم أكن قد وجدت بعد أية أجوبة لهذه الأسئلة حين بدأ المزيد من الناس يتكدّسون في الغرفة. ها هم يأتون بميركو وأسرَتَي جيلينيك وفريد – أجل، هؤلاء أعرفهم حق المعرفة، فهم وا أسفاه مَن تمّ اعتقالهم معي. ولكن ماذا يفعل بافل كروباشيك هو الآخر هنا؟ مؤرِّخ الفن هذا الذي كان يساعد ميركو في عمله بين المثقفين؟ ومن يعرف عنه شيئاً عداي وميركو؟ وماذا عن ذاك الشاب الطويل الذي غطّتْ وجهَه الجروح، يؤشّر لي ليفهمني بأننا لا نعرف أحدُنا الآخر؟ والحقّ، أنّي لا أعرفه بتاتاً. وهذا الآخر؟ ستيش؟ الدكتور ستيش؟ زدينيك؟ يا إلهي، إنهم مجموعة الأطباء! وهذه من يعرف عنها شيئاً عداي وميركو؟ ولماذا كانوا أثناء التحقيق في الزنزانة يسألونني عن المثقفين التشيك؟ كيف أمكنهم التوصّل إلى الرابط بيني وبين العمل بين المثقفين؟ ومن يعرف عن ذلك شيئاً عداي وميركو؟

لم يكن السؤال عصيّاً على الإجابة، ولكنه كان شاقّاً، قاسياً: لقد انهار ميركو. لقد اعترف ميركو. ومع هذا فقد كنت لبرهةٍ ممتلئاً بالأمل بأنّ ميركو لمْ يفشِ أيّ شيء أبداً. ولكن ها هم يأتون بمجموعة أخرى من المعتقلين – واي:

فلاديمير فانكورا، البروفيسور فيلبر وابنه، بيدريش فاكلافيك وقد تنكّر بحيث يستحيل معرفته، بوزينا بوليانوفا، جيندريش أليبل، النحات دفوراك، كل أولئك الذين شكّلوا أو كان يفترض أن يشكلوا اللجنة الوطنية الثورية للمثقفين التشيكيين، كانوا هنا كلهم. لقد سلّم ميركو كلّ شيء يتعلق بالعمل بين المثقفين.

لم تكن الأيام الأولى في قصر بيتشيك سهلةً تماماً. غير أنّ هذه الضربة كانت أعنف ضربة تلقّيتُها هناك. لقد انتظرتُ الموت، لا الخيانة. ومهما حاولت أنْ أحكم برِفق، مهما حاولت أنْ آخذ بالاعتبار كل الظروف المخفِّفة، ومهما حاولت أنْ أعزّي نفسي بما لم يُفْشِهِ ميركو

حتى الآن، ما استطعت أنْ أجد كلمةً أخرى تصف ذلك إلّا الخيانة. ولم يكن هذا مجرّد تذبذب أو ضعف، مجرّد انهيار كامل لرجلٍ عُذِّبَ حتى الموت يفتّش عن الراحة في هذيانه. لا شيء يمكن أن يغفر له ذلك.

الآن فهمت كيف تسنّى لهم أن يعرفوا اسمي أوّل ليلة. الآن فهمت السبب الذي من أجله اقتادوا أنيكا جيراسكوفا إلى هنا. لقد التقيتُ بميريك عدّة مرّات في شقّتها. الآن فهمت لماذا كان كروباشيك والدكتور شيش هنا. كنت أذهب إلى الغرفة 400 كلّ يوم تقريباً. وكلَّ يوم كنت أحصل على تفاصيل جديدة. إنه لشيءٌ مُحزن ومخيف أنْ ترى ذلك الرجل الذي كنت تحسبه قوي الأعصاب، الذي لم يَرهب الرصاص وهو يقاتل على الجبهة الإسبانية وما أثنتْه تجربته القاسية في معسكر اعتقال بفرنسا، أن تراه وقد وهن أمام عصا بيد الجستابو وانهار لكي ينقذ جلده. أيُّ شجاعة مزيَّفة هذه التي تكفي حفنة عِصِيّ لتمحوها! شجاعة مزيفة كإيمانه. لقد كان وهو وسط الآخرين، حين كان محاطاً بالرفاق الذين يفكّرون مثله. كان قوياً لأنه كان يفكر بهم. أما الآن وهو معزول، وحيد، يضغط عليه العدوّ بشدة فقد انهارت كلّ مقاومة لديه. لقد أضاع كل شيء لأنه أخذ يفكر بنفسه وضحّى برفاقه لينقذ جلده. لقد تحوّل إلى جبان ومِن جبانٍ إلى خائن.

لمْ يقُلْ لنفسه إنه كان من الأفضل له أن يموت على أن يكشف خفايا الوثائق التي وُجدَتْ بحوزته. لقد أفشى سرّها وسلّم الأسماء وأعطاهم عنوان شقّة سرّية وجاء بعملاء الجستابو إلى اجتماع مع شيش وبعث بهم إلى شقة دفوراك حيث كان هناك اجتماع مع فاكلافيك وكروباشيك. اعترف على أنيكا وحتى على ليدا – تلك الفتاة الشجاعة الوفية التي كانت تحبّه. لقد كانت بضعُ ضربات كافية لكي يقول نصف ما يعرفه. وحين حسب أني قد متّ ولم يعد هناك من يحاسبه اعترفَ لهم بالبقية الباقية.

وحين فعل كل هذا فإنه لم يؤذِني شخصيّاً. فقد كنت عندها في قبضة الجستابو فما الذي يمكنه أن يكون أكثر أذىً من ذلك؟ بالعكس، كان اعترافه شيئاً ملموساً قام عليه التحقيق بأكمله، شيئاً أشبه ببداية سلسلة كانت حلقاتها الأخرى بيدي وكان يسعدهم تماماً أن يكتشفوها وكان هذا هو السبب الوحيد الذي من أجله أُبقيتُ على قيد الحياة بعد إعلان الأحكام العرفية ومعي عدد كبير من أفراد المجموعة. ولكن واقع الأمر أنّ أية مجموعة ما كان لها أن تكون هناك لو أنّ ميريك أدّى واجبه كما ينبغي. وكنا قد متنا نحن الاثنين منذ وقت طويل وكان الآخرون قد عاشوا وواصلوا العمل بعد أن نكون نحن قد فارقنا الحياة.

الجبان يخسر أكثر من حياته نفسها. فها هو قد ضاع وتخلى عن الجيش المجيد وكسب احتقار أقذر الأعداء. وحتى وإن كان حيّاً. فإنه ما عاد حيّاً لأنه قد طرد نفسه من الجماعة. لقد حاول أن يصلح شيئاً مما اقترفه ولكنه لم يحقّق أيّ شيء بعد ذلك أبداً – وهذا أمْرٌ فظاعتُه في السجن أمَرُّ مِن أيّ مكان آخر.

السجين والوحدة – لكم تقترن هاتان الفكرتان غالباً. وهذا خطأ فادح. فالسجين ليس وحيداً. السجن حياة جماعية عظيمة ولا يستطيع أقسى أنواع العزل أن ينتزع السجين من هذه الحياة إلا إذا أراد هو ذلك. إن الضغط الذي تتعرض له هنا أخوَّةُ المضطهدين تجعلها تشتدُّ وتتعزّز وتصبح أكثر حساسية. إنها تنفذ من خَلَلِ الجدران التي تحيا وتتكلّم وتبثّ الإشارات. هذه الأخوّة تحتضن الزنزانات كلها في رواق واحد يربطه العذاب المشترك والخدمة المشتركة وفراش سجناء الخدمة وإنصاف ساعات الرياضة الصباحية، حيث تكفي كلمة واحدة أو إشارة واحدة لنقل الأخبار أو إنقاذ حياة إنسان. هذه الأخوّة توحد السّجن برمَّته بالرحلات المشتركة إلى غرف التحقيق في الوقت الذي ينقضي في (السينما) وفي العودة المشتركة. إنها أخوّةُ كلمات قليلة وأعمالٍ جليلة، إذ إنَّ مجرّد ضغط يدٍ أو سيجارة تُعطى سرّاً تحطِّم القفصَ الذي زجُّوكَ فيه، وتُحرِّركَ من الوحدة التي من شأنها تحطيمك. وللزنزانات أذرع تشعر بها وهي تبعد عنك الانهيار وأنت تعود من التحقيق تعاني سكرات الموت. وهي تطعمك في حين يطاردك الآخرون للموت جوعاً. وللزنزانات عيونٌ تتطلّع إليك وأنت تذهب إلى حتفك وأنت تعلم أنّ عليك أن تذهبَ غيرَ هيّاب، لأنك أخوهم وإنك ملزمٌ ألّا تضعفهم بأية خطوة خائرة. هذه أُخوّة يعمِّدُها الدم لكنها لا تُقهَر. ولولاها ما أمكنك أن تتحمَّل عُشْرَ ما قُسِم عليك لا أنت ولا أيُّ واحدٍ آخر.

إنّ مصطلح (غرفة 400) الذي ظهر في مطلع هذا الفصل غالباً ما سيتكرّر في سياق هذه القصة، إن كنتُ سأتمكن من إكمالها (لأننا هنا لا نعرف لا اليوم ولا الساعة). لقد عرفتها غرفة ولم تكن ساعاتي الأولى فيها ولا انطباعاتي الأولى عنها مُسِرّة. لكنها لم تكن غرفةً بل مجموعة. مجموعة جَذْلَة ومقاتِلة.

بدأت (غرفة 400) عام 1940 وقت أنْ اتَّسعَ نشاط قسم مكافحة الشيوعية بدرجة كبيرة. كانت فرعاً في (بيت السجن) و(السينما)، فرعٌ من غرفة الانتظار لمن ينتظرون التحقيق مخصَّصة للشيوعيين من أجل تجنّب نقلهم من الطابق الأرضي إلى الطابق الرابع لدى كلّ سؤال وإبقائهم باستمرار في متناول ضباط تحقيق الجستابو. كانت سبيلاً للاقتصاد في

العمل، كانت هذه هي الغاية من ورائها.

لكن ضع سجينين معاً – خاصة إن كانا شيوعيين وسترى بعد خمس دقائق مجموعة قد قامتْ تفسد كل الخطط. عام 1942 لم يكن لها اسمٌ آخر سوى (المركز الشيوعي). ومنذ ذلك الحين شهدت تبدّلات كثيرة. لقد مرَّ آلاف وآلاف من الرفاق رجالاً ونساء على مصطباتها الواحدة تلو الآخر. لكّن شيئاً واحداً فيها ما تبدل، هو روحُ الجماعة المكرَّسة للنضال والمؤمِنة بالنصر.

لقد كانت (غرفة 400) خندقاً متقدِّماً إلى مسافة بعيدة يحيطه العدو من كل جانب تقصفه نيرانٌ كثيفة. ولكن لم يفكِّر لحظةً واحدة بالاستسلام. فوقَه يخفق العلم الأحمر. وفيه أيضاً يظهر تضامن شعب بأسره يقاتل من أجل تحرّره.

وتحت في (السينما) يقطع حرس الأس أس أثناء الدوريات المكان جيئةً وذهاباً بجزماتهم العسكرية الثقيلة ويصرخون بك لمجرد أن تطرف عينك. وهنا في (غرفة 400) المسؤولون عن حراسة السجناء هم إمّا مفتّشون تشيكيّون أو عملاء لمَقرّ قيادة الشرطة. فمَن دخلوا في خدمة الجستابو كمترجمين، دخلوا إمّا طوعاً أو بإكراه رؤسائهم أو يؤدّون واجباتهم كعملاء للجستابو أو كتشيكيّين أو كشيء ما بين الاثنين. وفي هذا المكان لستَ مرغماً على الجلوس متأهّباً، يداك على ركبتيك وعيناك ثابتتان أمامك باستقامة. هنا يمكنك الجلوس بحرّية أكبر وتتطلّع حولك وتعطي إشارات في يديك ويمكنك أن تفعل ما هو أكثر من ذلك تبعاً لأنواع المفتّشين الثلاثة ومَن منهم هو في الواجب.

لقد كانت (غرفة 400) مكاناً يمكنك أن تستمدّ منه أعمق بصيرة عن الكائن الذي يسمى الإنسان. إن القرب من الموت يكشف عُريَ كلّ إنسان، سواء من يضعون على أذرعهم اليسرى الشارة الحمراء للشيوعيين أثناء التحقيق، أو من يشتبه بتعاونهم مع الشيوعيين أو أولئك الذين يتولّون الحراسة ممَّن يحضرون أحياناً جانباً من التحقيق في الغرف المجاورة. هناك أثناء التحقيق يمكن للكلمات أن تكون درعاً أو سلاحاً. أما في (غرفة 400) فلم يكن هناك من يختبئ وراء الكلمات. فليس المهم هنا ما تقوله بل ما تنطوي عليه لأنك هنا لن تستطيع أن تحفظ إلا ما هو جوهري فيك. وكل ما هو ثانوي ملطّف مضعف أو مزخرف لأسس شخصيتك يتلاشى ويقتلعه الإعصار الذي يسبق الموت. ولا يبقى إلا الموضوع المجرّد والأصيل فالمخلص يقاوم والغادر يخون والضعيف يتهاوى تحت اليأس والبطل يقاتل. في كل إنسان هناك ضعفٌ وقوة، شجاعةٌ وجُبن، صمودٌ واستسلام، نقاءٌ وقذارة. لكنْ

هنا شيءٌ ما أو آخر وحده يمكن أن يبقى. إما هذا أو ذاك، وما إن يحاول أحدٌ دون بصيرة أن يوازن بين الاثنين فسيكون أسوأ ممَّن يرقص في جنازته يحمل الدفوف بيديه وفي قبعته ريشة صفراء.

لقد كان هناك من يشبه هؤلاء بين السجناء ومثلهم أيضاً بين المفتشين والعملاء التشيكيين. فهناك من يشعل أثناء التحقيق شمعة إلى ربه إله الرايخ ويشعل في غرفة 400 شمعة أخرى للشيطان البلشفي. أمام الضابط الألماني يحطم أسنانك لينتزع منك اسم الذي تتصل به، وفي (غرفة 400) يبدو أنيساً تماماً حتى أنه ليقدم إليك كسرة خبز تنقذك من جوع. أثناء مداهمة البيوت ينهب كلاً منّا في شقتك وفي (غرفة 400) يعطيك نصف سيجارة من أسلابه ليبدي لك تعاطفه. هناك آخرون وما هم إلّا تنويعٌ آخر لحدّ ما لنفس الصنف ممن لا ينزل الأذى بك من نفسه ومع هذا فهو لا يقدم لك إلا عوناً أقل، وهؤلاء يفكرون دوماً بجلدهم فقط. لقد حوّلتهم حساسيّتهم إلى بارومترات سياسية ممتازة. أهم متزمّتون ورسميّون جداً؟ لك أن تثق أن الألمان يزحفون على ستالينغراد. أَهُم أنيسون وعلى استعداد لتبادل الحديث مع السجناء؟ الوضع جيد: إن الألمان قد رُدّوا على أعقابهم في ستالينغراد بشكلٍ واضح. هل شرعوا يقصّون عليك أصل عوائلهم التشيكية العريقة وكيف أُرغموا على خدمة الجستابو؟ رائع: الظاهر أن الجيش الأحمر يتقدم وراء روستوف. هناك آخرون أيضاً من الصنف نفسه يضعون أيديهم في جيوبهم وهم يرونك تغرق ولكنهم يمدون أياديهم إليك برغبة حين يرونك قد وصلت الضفة لوحدك.

مفتّشون من هذا الصنف كانوا على وعي بالروح الجماعية لغرفة 400 وقد جهدوا لأن يتعاونوا معها لأنهم قدّروا قوّتها. إلا أنهم لم ينتموا إليها مطلقاً. وكان هناك صنفٌ آخر مِمَّن لم تكن الجماعة لتعنيه أبداً: أستطيع أن أطلق عليهم اسم القَتَلة. لكن القاتل ينتمي إلى الأسرة البشرية. إن هذه الوحوش الناطقة بالتشيكيّة تعذّب السجناء التشيكيّين والعِصِيّ بأيديهم لذلك الحدّ الذي يأنفُ منه حتى الكثير من الضباط الألمان. وهم عاجزون عن التظاهر حتى بمصالح كاذبة لأمتهم أو الرايخ. إنهم يعذبون ويقتلون لمجرّد التلذّذ. إنهم يحطّمون الأسنان وطبلات الأذن، يسحقون الأعين ويركلون الأعضاء الجنسية، يسلخون رأس من يعذبّونهم ثم يضربونهم حتى الموت لمجرد القسوة لا غير. كلّ يوم تراهم. كلّ يوم عليك أن تحتكّ بهم وتتحمّل وجودهم الذي يملأ الجوَّ كله بالنجيع والصراخ ولا يعينك على ذلك إلا إيمانك الراسخ بأنّهم لن يُفلتوا من القصاص العادل حتى ولو أجهزوا على كلّ الشهود على جرائمهم.

وعلى الطاولة نفسها يجلس إليهم جنباً إلى جنب آخرون ينتمون إلى الصنف نفسه في الظاهر. أناس من الإنصاف أن تخطّ لهم صفة الإنسان بحروفٍ كبيرة. أناس حوّلوا أنظمة السجن لمصلحة السجناء، أناسٌ هم الذين ساعدوا على خلق جماعة (غرفة 400) وهؤلاء هم الذين ينتمون إليها بكل جوارحهم وبكل الشجاعة التي عندهم. إن أعظم ما يتحلّون به تكمن في واقع أنهم لم يكونوا شيوعيين. على العكس فقد عملوا فيما مضى في الشرطة التشيكيّة ضدّ الشيوعيين. إلا أنهم أدركوا سرّ قوّة الشيوعيّين، أدركوا ما لهم من أهمية للأمة وهم يَرَونَهم يناضلون ضدَّ الاحتلال، ومنذ تلك اللحظة خدموا بأمانة وساعدوا كلَّ مَن بقي وفيّاً حتى ولو على مصطبة السجن. ربما كان العديد من المناضلين خارج السجن قد تردَّدوا لو كانت لديهم أدنى فكرة عن الأهوال التي تنتظرهم وقت أنْ يقعوا في قبضة الجستابو. والذين هم هنا يرون هذه الأهوال بأمّ أعينهم باستمرار كل يوم كل ساعة وفي كل يوم وساعة يقبعون بانتظار أن يُوضعوا جنباً إلى جنب مع غيرهم من السجناء ويتعرّضوا إلى تجربة أشدّ فتكاً مما تعرّضوا له حتى الآن. ومع هذا فإنهم لم يعرفوا التذبذب، لقد ساعدوا على إنقاذ حياة الألوف وخفَّفوا من مُصاب أولئك الذين لم يكن هناك رجاءٌ في إنقاذ حياتهم. إلى هؤلاء ينبغي أن يقلَّد لقبُ البطل ودون عونهم ما كان بإمكان (غرفة 400) أن تصبح ما أصبحت عليه، ومثلما عرفها ألوف الشيوعيين، مكاناً للنور في دارٍ مظلمة، خندقاً في ظهرِ العدوّ، ومركزاً للنضال في سبيل الحرّية في مركز المحتلّين ذاته.

الفصل الخامس
شخوص وأشكال

لست أطلب إلّا شيئاً واحداً: عليكم، أنتم يا مَن ستجتازون هذه المحنة أحياء، ألّا تنسوا. لا تنسوا الطيِّب ولا الشرّير. اجمعوا بأناة البيّنة عن كلّ ضحيّة. فسيأتي وقتٌ يكون فيه الحاضرُ ذكرى وسيتحدث الناس عن عصرٍ عظيم وعن أبطال مجهولين صنعوا التاريخ. وليكنْ معلوماً أنّهم ما كانوا أبطالاً مجهولين وأنهم بشرٌ لهم أسماء وقَسَمات وتطلّعات وآمال، وأنّ عذابات أصغر هؤلاء شأناً ما كانت أقلَّ من عذابات أوّل من خُلِّدَتْ أسماؤهم. وليكن كل أولئك أعزّاء عليكم دوماً، مثل أناس تعرفونهم عن قرب، أناس من صلبكم، مثلكم.

لقد ضُيِّعَتْ عوائلُ من الأبطال برمَّتها. فتعلَّموا أن تملأكم المحبة لواحدٍ من أولئك على الأقل، كأنه ابنكم أو ابنتكم، ولتشعروا بالاعتداد به بوصفه إنساناً عظيماً وهَبَ حياتَه من أجل المستقبل. كلُّ مَن دافع بدمه عن المستقبل بأمانة وسقط في سبيل بهائه، إنما هو شخص منحوتٌ في صخر. أما من أراد أن يبني من تراب الماضي سدّاً ضدَّ طوفان الثورة، إنْ هو إلّا شكلٌ مصنوعٌ من خشبٍ متعفِّن، حتى لو كانت كتفاه مثقَلَتَين اليوم بنياشين المجد. ولكن حتى هذه الأشكال ينبغي أنْ ترى وهي تعيش خِسَّتها وحَقارتها. وحشِيَّتَها وغباءَها، لأنهم مادَّةٌ ستساعد أبناء المستقبل على تصوِّر هذه المرحلة التي نعيشها.

وما سأرويه إنْ هو إلّا مادّة، مجرّد إفادة شاهد عيان، إنّها مجرّد موادّ متناثرة جمَعْتُها من مشاهداتي العيانيّة في قطاع صغير، ومن دون أيّ منظور. ولكنها تنطوي على ملامح تشابه حقيقي: للعظيم والتافه، للشخوص والأشكال.

الزوجان جيليتيك

هما جوزيف وماري. هو سائق حافلة وهي خادمة. عليكم أن تعرفوا شقّتهما. أثاثٌ عصريّ، صقيل، بسيط، خزانة كتب، تمثال صغير، صور على الجدران وهي نظيفة نظافة لا تصدق، لدرجة يمكنكم القول إن ماري وضعت كلّ روحها فيها، وإنها لم تعرف أيّ شيء أبداً خارج هذا العالم الصغير. ومع ذلك فقد مرّت سنوات طويلة منذ أن بدأت العمل في الحزب الشيوعيّ والأحلام تخامرها في العدالة كما تفهمها هي. وعمل كلاهما بتفانٍ وهدوء ولم ينكمشا حين أثقلهما الاحتلال بمسؤوليات جسيمة.

بعد ثلاث سنوات من الاحتلال اقتحمت الشرطة منزلهما. واصطفّا، أحدُهما جنب الآخر، وأيديهما مرفوعةٌ فوق الرأس.

19 أيار 1943

الليلة يقتادون حبيبتي جوستينا إلى بولندة «للعمل»، إلى الأشغال الشاقة، يقتادونها لكي تموت هناك بالتيفوس. ربما لم يبقَ لي من العمر إلا بضعة أسابيع، ربما شهران أو ثلاثة أشهر. ويبدو ممّا سمعت أن إضبارتي قد قُدِّمَت إلى المحكمة. ربما أربعة أسابيع أخرى من التحقيق في بانكراك وبعدها شهران أو ثلاثة أشهر وتحين النهاية. ولن يُنجزَ هذا التَّقرير. ولكنَّني سأحاولُ مواصلَتَه، إذا توفَّرت الفرصة أمامي في هذه الأيام القليلة الباقية. اليوم لا أستطيع. اليوم رأسي وفؤادي يمتلئان بجوستينا، هذه المخلوقة الكريمة، الدافئة، رفيقة العمر النادرة والوفية، هذا العمر العاصف والمضطرم أبداً.

كل أمسية كنت أنشدها تلك الأغنية التي طالما أحبّت: أغنية تحكي عن الأعشاب المزرقّة للسهوب، المدوّية بالأساطير المجيدة، لمعارك الأنصار. عن امرأة قوزاقيّة قاتلتْ في سبيل الحرية جنباً إلى جنب مع الرجال، عن إقدامها واستشهادها في إحدى المعارك (رقدت عاجزة عن أن ترفع رأسها عن أرض الوطن) (أواه، يا رفيقة النضال!). أية قوة تنطوي عليها تلك المخلوقة الصغيرة، ذات القَسَمات المنحوتة بصلابة والعينين الطفوليّتين الواسعتين المفعمتين حُنوّاً! لقد صنع منا النضال والفراق المستمر عاشقَين أزليَّين عاشا، لا مرَّةً وحسب، بل مئات المرّات، اللحظة المتوقّدة لأوّل غَزَلٍ وأوّل تعارف. وقد وحّدت قلبَينا نبضةٌ واحدةٌ ونَفَسٌ واحد كنا نستنشقُه في ساعات نعيمنا وساعات مخاوفنا، في الجَوى والأسى.

ولسنوات كنّا نعمل معاً ونمدّ يدَ العون لأحدنا الآخر، مثلما يُعِين رفيقٌ رفيقاً آخرَ تماماً، ولسنواتٍ وهي أوّل من يقرأ أعمالي وأوّل من ينقدها، وكم كان يشقّ علَيَّ أن أكتُبَ لو أنّي ما أحسست بنظرتها المُحِبّة خلفي، ولسنوات وقفْنا جنباً إلى جنب في نضالاتنا، التي ما كانت قليلة، ولسنوات رُحنا نجوس الأماكن التي أحبَبناها، يداً بيد. لقد ذُقنا مصاعبَ كثيرة وتذوّقنا متعاً لا حصر لها، لأننا كنا أغنياء من غنى الفقراء، ذلك الغنى الداخلي.

جوستينا؟ انظرْ، هذه هي جوستينا:

كان ذلك بعد إعلان الأحكام العرفية، حوالي منتصف حزيران من العام الماضي، حين رأتني أوّل مرّة منذ اعتقالي قبل ستة أسابيع، بعد كل تلك الأيام الحافلة بالألم وهي وحيدة في

زنزانتها، تتأمل في الأخبار التي تعلن عن موتي. لقد استدعوها لتُضعِفَ عزيمتي.

وخاطبَها رئيسُ القسم بحضوري قائلاً (أقنعيه، أقنعيه أن يكون عاقلاً. إذا كان لا يفكّر بنفسه، فليفكرْ بك على الأقل. أمامك ساعةٌ واحدة لتحزمي أمرك. وإذا ظلّ مصراً، فستُعدمان معاً هذه الليلة. أنتما الاثنان معاً).

وداعبتني بعينيها وردَّتْ ببساطة:

(لا يخيفني هذا، أيها الضابط. فهذا آخر ما أتمنى. إذا كنتم ستعدمونه فخذوني أنا أيضاً إلى الموت معه!).

أترون، هذه هي جوستينا! حبٌّ وتفانٍ.

إيه، جوستينا، إنّ بوسعهم أن يسلبوا الحياة منا أليس كذلك، ولكنهم لن ينتزعوا منّا أبداً شرفنا وحبّنا.

إيه أيها الناس، هل بوسعكم أن تتصوّروا كيف سنعيش لو قُدِّرَ لنا أن نلتقي ثانيةً الواحد بالآخر بعد كلِّ هذا الحرمان؟ لو قُدِّر لنا أن نلتقي ثانيةً في حياة حرّة، بهيّة بحريَّتها وروحها المبدعة؟ حين يطلّ فجرُ ذلك اليوم الذي طالما تطلَّعنا إليه وناضَلْنا من أجلِه والذي سنفتدي به حياتنا؟ إيه حقاً، فحتى ونحن أموات فسنبقى نحيا في مكان ما في جزء صغير من سعادتكم العظمى، لأننا وضعنا حياتنا فيها! وهذا ما يفعمنا غبطةً برغم أسى الفراق.

لم يسمحوا لنا حتى أن نتوادع ونتعانق وأن نتصافح. وحدها مجموعة السجن، التي تصل ساحة شارل ببانكراك، كانت تزوِّدنا بالأنباء المتعلقة بمصير أحدنا الآخر.

تعرفين يا جوستينا، كما أعرف أنا، أننا قد لا نلتقي ثانية أبداً. ومع هذا فإني أسمعك تنادين من بعيد: وداعاً يا حبيبي!

وداعاً يا جوستيناي!

وصيَّتي

لم أملك شيئاً غير مكتبتي، وهذه دمَّرَها الجستابو.

لقد كتبتُ كثيراً من المقالات الثقافية والسياسية، تحقيقات ودراسات، محاضرات أدبية ومسرحية. وكثيراً من هذه بِنْتُ يومها وقد انتهتْ معه. فاتركوها وشأنها. لكنَّ قسماً منها مِلكٌ

للحياة. وكنت آمل أن تقوم جوستينا بجمعها. ولكن الأمل ضئيل في ذلك. ولهذا أطلب من أفضل الرفاق، لادا شتول، أن ينشرها بخمسة كتب:

1 - المقالات والمساجلات السياسية.

2 - مقالات مختارة تتناول الشؤون الداخلية.

3 - مقالات مختارة عن الاتحاد السوفياتي.

4 - خَمسة مقالات ودراسات عن الأدب والمسرح.

ويمكن العثور على أغلب هذه في (تفوربا) و(رودي برافو) وبعضها في (كمين)، (برافن)، (بروليتكولت)، (دوبا)، (سوسياليستا)، (أفانتي) وغيرها.

أما المخطوطة المتعلقة بدراستي عن يوليوس زيير فهي بحوزة الناشر جيرجال (الذي أحبه على شجاعته الأكيدة التي نشر بها كتابي (بوزيتا نيمكوفا خلال فترة الاحتلال). في حين أن دراستي عن سابينا وملاحظتي حول جان نيرودا فهي في مكان ما من البيوت التي عاش فيها آل جيلينيك، فيسوسل، وسوشانيك، ممن أصبح معظمهم الآن في عداد الموتى.

وكنت قد شرعت بكتابة رواية عن جيلنا، فصلان منها في منزل والدي، أما البقية فربما أتلفت. وقد رأيت بعض مخطوطات قصصي بين ملفات الجستابو. وللمؤرِّخ الأدبي الذي سيأتي في المستقبل، أوصي بمحبّتي لجان نيرودا. إنه أعظم شعرائنا ممن ظلوا يستشرفون المستقبل أبعد منا. ومع هذا، فلم توضع عنه أية كتب تعبّر عن فهمها وتقديرها له. وما ينبغي أن يكتب عنه هو نيرودا البروليتاري. لقد ألصقوا بذيل معطفه نشيداً رعوياً لمالاسترانا ولم يعرفوا أنه بنظر حيّ مالاسترانا «الرعوي» العتيق ذاك كان (يُعَدُّ وَغْداً) وأنّه وُلِد في ضواحي سميخوف في وسطٍ عُمّالي، وأنّه من أجل الوصول إلى مقبرة مالاسترانا سعياً وراء (زهورٍ من مقبرة) فقد كان عليه أن يمرّ بمصانع إنغهوفر.

ومن دون هذا، يستحيل فهم نيرودا، ابتداءً من كتابه (زهورٌ من مقبرة) حتى مسلسلته الروائية (أول أيار 1890). إنّ الجميع بمن فيهم سالدا ذلك الرجل النافذ البصيرة. يرون في العمل الصحفي لنيرودا ما يشبه العائق أمام عمله الشعري. وهذا سُخف! فبسبب كون نيرودا صحفيّاً بالذات، هو ما مكَّنَه أن يكتب عملاً رائعاً مثل (غنائيّات وعاطفيّات) أو (أناشيد الجمعة) والجزء الأكبر من كتاب (موضوعات بسيطة). ربما كانت الصحافة تُنهكُ المرءَ وتمنعه من التركيز، لكنّها تشدُّه إلى قارئه وتعلّمه أن يبدع حتى في الشعر – شريطة أن يكون صحفيّاً يتصف بالاستقامة طبعاً كنيرودا. ولو كان نيرودا دون صحافة تتناول الحياة اليومية، لتمكّن

ربما من كتابة وفرةٍ من دواوين الشعر، لكنّ واحداً منها ما كان يمكنه أن يبقى حيّاً عبر قرون مثلما ستحيَا مؤلفاته.

قد يكمل أحدٌ كتاب (سابينا). فهو كتاب يستحق الإنجاز.

ولوالدي جزاءَ محبَّتهم ونبلهم البسيط، أردتُ أن أؤمِّن خريفاً مشمساً لهما بفضل كل العمل الذي قمت به. وليس لهم فقط. وأرجو ألّا يشوَّه ذلك جَرّاء بُعدي عنهما. (العامل فانٍ، والعمل لا يموت) وفي الدِّفء والنور اللذين يحيطان بهما، سأكون على الدوام بقربهما. أرجو شقيقتي، ليبا وفيركا أن يعينا ابنتي وأمي على نسيان الفراغ الذي حلَّ بعائلتنا بما ينشدانه لهما. لقد فاض بهما الدمع حين قَدِمَتا لزيارتنا في قصر بيتشيك، لكن الفرح يعيش فيهما ومن هنا محبتي لهما ومن هنا تلك المحبة التي نشترك فيها. إنّهما لَزَرَّاعتَان للفرح. فلتَكونا مصدَر فرحٍ لا ينضُب أبداً.

وللرفاق الذين ستكتب النجاة لهم في هذه المعركة الأخيرة، أشدُّ بحرارة عليهم وللَّذين سيأتون من بعدهم، بالأصالة عن نفسي ونيابة عن جوستينا. لقد قمنا بأداء واجبنا.

وأكرّر ثانيةً: لقد عشنا للفرح، وخضنا النضال من أجل الفرح وفي سبيل الفرح نموت. فلا يُربَطُ الحزن إذن باسمينا أبداً!

ي. ف.
1943/5/19

أكملتُ ووقَّعت. أمس انتهى التحقيق القضائي. والأمور تسرع أكثر مما توقعت. ويبدو أنهم في عجلة من أمرنا. والمتهمان في القضية نفسها هما ليدا بلاخا وميركو. لقد باءت نذالته بالخِذلان ولم تنفعه.

أثناء التحقيق القضائي كانت الأمور تجري بدرجةٍ من الدقة والرزانة إلى حدّ الجمود. أما في الجستابو فقد كان فيها شيء من الحياة. مروِّعة ولكنها مع ذلك تنبض بالحياة. كان فيها هناك شيءٌ حماسيّ، حماسة المناضل من جانب وحماسة الصيادين، الضواري أو قُطّاع الطرق المفضوحين، من جانب آخر. وبعض أولئك في الجانب الآخر كانوا على يقين من الإيمان. أما هنا، في التحقيق القضائي، فليست إلا دائرة. وفطائر الكيك الكبيرة المحلّاة بالصُّلبان المعقوفة على باقات القاضي تدلِّل على الإيمان الذي لا وجود له عند هذا الرجل. إنهم درعٌ يحتمي خلفَه خدمٌ موظَّفون صغار مساكين، متلهِّفين بطريقةٍ ما على النجاة بجلودهم

في وقت كهذا. ومثلهم تجاه المتهم لا هو بالطيِّب ولا بالخبيث. ومثلهم لا يبتسم أو يُقَطِّب. إنهم يؤدّون واجباً رسمياً. ليس فيهم نقطةُ دمٍ تجري، بل مجرّد ماء خفيف.

لقد دوّنوا، وقّعوا وسنوا أحكامَ القانون لتناسب الوضع. وإسناد قرار الاتهام ما يقرب من ستّ مرّات إلى الخيانة العظمى، التآمر ضد الرايخ والتخطيط لانتفاضة مسلَّحة وغير ذلك مما لا أعرفه. وكل تهمة منها كافية بحدّ ذاتها.

لقد قاتلتُ ثلاثة عشر شهراً من أجل حياتي وحياة الآخرين. بجرأة ودهاء. إن برنامجهم ينطوي على «الدهاء النوردي» وأحسب أني بارع في ذلك أيضاً بقدرهم. إنني أخسر فقط لأنهم إضافة إلى ذلك، يمسكون الفأس بيدهم.

هذا النضال انتهى إذن. والآن جاء الانتظار. أسبوعان أو ثلاثة ثم ينتهي قرار الاتهام، ثم السفر إلى الرايخ وانتظار المحكمة ثم الحكم وأخيراً 100 يوم قبل تنفيذ الإعدام. هذه هي الآفاق. أربعة شهور ربما. أو ربما خمسة. وفي غضون ذلك يمكن أن تتبدّل أشياءُ كثيرة. في غضون ذلك كلُّ شيء يمكن أنْ يتبدل. ممكن. ومن هذه الزاوية لا أستطيع أن أحكم أكثر من ذلك. ومع ذلك فإن تسارع الأحداث في الخارج قد يعجّل حتى في نهايتنا. وهكذا يتعادل كل شيء.

إنه سباق بين الأمل والحرب. سباق بين الموت والموت. من هو الذي سيأتي أولاً: موت الفاشية أو موتي؟ هل أكون أنا وحدي من يواجه هذا السؤال! أبداً لا، لأن عشرات ألوف السجناء يسألونه كذلك، ومثلهم ملايين الجنود وعشرات ملايين الناس في كل أرجاء أوروبا والعالم بأسره. بعضهم يساوره أملٌ أكبر، آخرون أملٌ أقلّ. لكن الأمر كلّه جليٌّ تماماً. إن الأهوال التي تُغرِق بها الرأسماليةُ المتهرِّئةُ العالمَ بأسره، تهدّدُ الجميعَ على نحوٍ شامل. إنَّ مئات آلاف الناس – واي الناس! – سيسقطون أيضاً، قبل أن يكون باستطاعة من سينجون أن يجيبوا: لقد نجوتُ من الفاشية. لقد أضحى الأمر الآن مسألة أشهر لا غير وسرعان ما سيكون مسألة أيام لا غير. لكنها هذه الأيام هي التي ستكون الأقسى قطعاً. ولقد فكَّرتُ دوماً كم هو محزن أن يكون المرء الجندي الأخير الذي يُصابُ في آخر لحظةٍ من الحرب بآخر طلقة في القلب. ولكن لا بدّ من أحد يكون هو الأخير. ولو أنّي عرفت بأنّي سأكون هذا الأخير، لاندفعت قدماً دون تردُّد.

سوف لن تسمح لي الفترة الوجيزة التي ما زالت أمامي في بانكراك بصياغة هذا التقرير

بالشكل المطلوب. على أن أكون أكثر إيجازاً. وسوف يكون شهادة للناس أكثر ممّا لعصرٍ بأكمله. وهذا في رأيي هو الشيء الأكثر أهمية.

لقد بدأت بهؤلاء الأشخاص بالزوجين جيلينيك، إنسانان بسيطان لا يبدوان لك وكأنهما بَطَلان في الظروف المعتادة. ولحظة اعتقالهما، اصطفّا جنباً إلى جنب وأيديهما مرفوعة أعلى الرأس، هو شاحب وهي متورِّدة تحت الصدغين من مرض السلّ، في عينَيها نظرةٌ أقرب إلى الفزع وهي ترى كيف قلَبَ الجستابو بخمس دقائق حُسنَ ترتيبها النادر إلى فوضى. وعندها استدارت برأسها ببطء إلى زوجها وسألتْه:

- وماذا سيحدث الآن يا جو؟

وكان هو دوماً قليل الكلام، لا تواتيه الألفاظ بيسر والكلام يثير اضطرابه. الآن ردّ عليها بهدوء ودون مشقة:

- سنموت يا ميغ.

ما صرختْ أو ترنَّحَتْ، فقط وضعتْ يدَها على يدِه بحركةٍ جميلة، على مرأى من فوهات المسدَّسات التي كانت مصوَّبة نحوها طيلة الوقت. ومن أجل هذا كسبت له ولنفسها أول ضربة في الوجه. مسحتْ خَدَّها وبدتْ مندهشةً لحدٍّ ما من هؤلاء الدُّخلاء وعلَّقتْ بطريقة كوميدية تقريباً:

- يا للفتيان الحلوين.

ثم ارتفع صوتها:

- يا للفتيان الحلوين... و... ويا لوحشيَّتهم الضاربة.

لقد وصفتهم بصواب. وبعد ساعات قلائل أخرجوها من مكتب ضابط «التحقيق» وقد ضُربَتْ حدَّ الإغماء. لكنهم لم يحصلوا على أيّ شيء منها. لا هذه المرّة ولا في المرّات اللاحقة.

لا أعرف كل الذي مرّ عليهما خلال الفترة التي كنتُ فيها مُلقىً في زنزانتي مريضاً لدرجةٍ يتعذَّرُ استدعائي للتحقيق. لكني أعلم أنهما طيلة تلك الفترة لم ينطقا بحرف واحد. وانتظراني. وكم من مرّة بعد هذا قيد جو، ذراعاه وساقاه موثقةٌ خلفَ ظهره وكم من مرّة ضُرِبَ وضُرِبَ وضُرب، لكنه لم ينبسْ ببنت شفة حتى أمكنني أن أخبره، أو أشير له بالأقل بنظرة، ما

ينبغي عليه أن يقوله أو كيف ينبغي له أن يجيب، حتى يكون بوسعنا أن نضلّل الذين يحقّقون معنا.

كانت هي حسّاسة لدرجة الكآبة. هكذا كنت أعرفها قبل اعتقالها. ولكن طيلة الوقت الذي كنا فيه في الجستابو، لم أرَ في مآقيها دمعةً واحدة قَطّ.

كانت تعشق منزلها. مع هذا، حين كان الرفاق في الخارج، ورغبةً في إسعادها، يطمئنونَها بكلمة بأنهم يعرفون من سرق أثاثها وأنهم قد وضعوه تحت مراقبتهم، كانت تجيب:

- إلى الجحيم بالأثاث. لماذا يضيّعون وقتَهم في ذلك وأمامهم أمورٌ أكثر أهمّية عليهم الانتباه إليها، إلى جانب أنَّ عليهم أنْ يعملوا بدلاً عنّا كذلك. ينبغي أن يكون هناك تنظيفٌ تامّ، قبل كل شيء. ولو قُدِّر لي أن أعيش فسأتدبَّر أمرَ الدّار بنفسي مباشرةً.

ذات يوم اقتادوهما معاً بعيداً، كلٌّ إلى مكانٍ مختلف. وعبثاً حاولتُ معرفة مصيرهما. فالناس وهم في قبضة الجستابو يختفون دون أن يتركوا أثراً، يتناثرون مثل البذور في آلاف المقابر. أيُّ حصاد سينبت من هذا البذار المروِّع!

كان وداعها الأخير:

- أرجو ألّا يشعر أحدٌ بالأسى من أجلي أو أن يساوره الخوف بسببي. لقد أدّيتُ ما ترتَّب علَيَّ من واجب كعاملة وسأذهب إلى الموت على هذا النحو أيضاً.

ما كانت «سوى خادمة». وما كانت تملك تعليماً كلاسيكياً وما كانت تدري كيف قِيلَ ذاتَ مرة في الماضي:

أيُّهذا الجواب، بَلِّغْ الإسبارطيِّين أننا نرقدُ هنا موتى، لأنّ القوانين أمرتْنا بذلك.

الزوجان فيسوسيل

عاشا في مجموعة الشقق ذاتها، جوارَ شقّة أسرة جيلينيك. هما أيضاً جوزيف وماري. عائلة موظف صغير، أكبر سنّاً من جاريهما. كان شاباً نحيلاً من نوسل عندما أخذوه إلى الجيش وأرسلوه جندياً إلى الحرب العالمية الأولى. وما هي إلّا أسابيع قليلة حتى عادوا به ثانية وقد تحطَّمتْ ركبته، التي لم تُشفَ مرة أخرى أبداً. وتعارفا على بعضهما في إحدى المستشفيات العسكرية في برنو، حيث كانت هي تعمل ممرضة هناك. كانت تكبره بثمانِ سنوات وقد خلّفت وراءَها زواجاً فاشلاً. وبعد الحرب تزوَّجتْ من جو. وبقي في علاقتها به دوماً شيء من

روح الممرضة، تَبَنٍّ أموميّ. لم يكونا بروليتاريَّين بالولادة ولم يشكّلا عائلة بروليتارية. وكان طريقهما إلى الحزب أكثر تعقيداً ومشقّة لحدٍّ ما – ولكنهما وصلا إليه. وكما هو الوضع في كثير من حالات كهذه، بدأ الطريق عبر الاتحاد السوفياتي. وقبل فترة طويلة من الاحتلال، كانا قد عرفا ما يريدان وكانا يخفيان الرفاق الألمان في شقّتهما.

وفي أصعب الأوقات، بعد غزو الاتحاد السوفياتي وخلال الفترة الأولى من الأحكام العرفية عام 1941، كان أعضاء اللجنة المركزية يلتقون في شقتهما. وكان هونزا زيكا وهونزا تشيرني ينامان هناك. وكنت أنا أكثر الكل تردّداً ومبيتاً هناك. هنا كتبنا (رودي برافو) واتخذنا كثيراً من القرارات المهمّة وهنا تعرفت أول مرة على «كارل» تشيرني. كانا دقيقين ويقظين على نحو مثابر ويعرفان على الدوام ما الذي ينبغي عمله بالضبط في الأوضاع المفاجئة، التي غالباً ما كانت تقع في العمل السرّي. وكانا يعرفان كيف يتصرّفان في مثل هذه الحالات. إلى جانب ذلك، فلم يكن بوسع أحد أبداً أن يتصور أنّ هذا الموظَّف الصغير الشأن، النحيل، ذا الطبع المرح الذي يعمل «في دائرة السكك»، وهذه «المدام الصغيرة» السيدة فيسوسيلوفا، يمكن أن يتورّطا بأيّ عمل يحرّمه القانون. رغم ذلك فقد اعتقل بعد فترة قصيرة من اعتقالي وروّعتُ عندما رأيته أول مرة. كم من الأمور ستكون في خطر لو أنه تكلّم! لكنه أمسك لسانه. لقد جيء به هنا بسبب بضعة منشورات أعطاها لصديق ليقرأها – ولم يحصل الجستابو أبداً على أية معلومات أكثر من تلك المنشورات.

بعد شهور قلائل، حين أدّت قلّة الانضباط من جانب بوكورني وبيكسوفا إلى اكتشاف الجستابو أنّ هونزا تشيرني يعيش في منزل شقيقه فيسوسل، قاموا باستجواب جو بأسلوبهم المعتاد لمدة يومين، لينتزعوا منه مكانَ آخر موهيغاني في لجنتنا المركزية. في اليوم الثالث جاء إلى غرفة 400 وجلس على الأرض بحذر، لأن الجروح الطريّة مروعة الألم عند الجلوس عليها. تطلعت إليه بقلق، بتساؤل وتشجيع. وردّ بجَذَل، بذلك الطراز التوسُّلي اللابيدي:

- عندما يرفض الرأس، فلا الفم ينطق ولا المؤخّرة. لقد عرفت هذه العائلة الصغيرة جيداً، وكم كان كلٌّ منهما ولوعاً بالآخر وكم كانا يخشيان فراق أحدهما الآخر حتى ولو ليوم واحد. وها هي الشهور تمرّ الآن – ما أعظم حزن زوجته في تلك الشقة الأليفة التي تطل على حيّ ميشيل، وهي وحيدة في زمن كانت فيه الوحدة أسوأ ثلاثة أضعاف من الموت. وما أكثر الأحلام التي نسجتها عن الكيفية التي يمكن بها أن تساعد زوجها وتستعيد تلك الأنشودة الصغيرة التي كانا فيها يسمّيان أحدهما الآخر، بطريقة مضحكة لحدٍّ ما، ماما وبابا. ومرة

أخرى وجدتْ الطريق الوحيد: أن تواصل عملها، العمل من أجل نفسها ومن أجله هو.

وجدت نفسها عشية السنة الجديدة، 1943، ما زالت تجلس وحيدة عند المائدة، وصورته في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه وحين انتصف الليل، قرعت كأسها بكأسه وتمنّت له الصحة الجيدة، تمنّت عودته وشربتْ نخبَ حريّته.

وما إن مرّ شهر آخر، حتى كانت هي أيضاً رهن الاعتقال. وارتعد كثيرون في غرفة 400. فقد كانت هي واحدة من أولئك المسؤولين عن الاتصال بالعالم خارج السجن. وما نبست ببنت شفة.

لم يعذّبوها بالضرب، فقد كانت على درجة من المرض لدرجة أنها قد تموت بين أيديهم. فعذّبوها بطريقة أشدّ فظاعة: عذّبوها ذهنياً. قبل أيام من اعتقالها اقتادوا زوجها للعمل في بولندة. ولهذا خاطبوها الآن قائلين:

اسمعي، الحياة شاقة هناك. حتى للناس الأصحاء. وزوجك كسيح. لن يستطيع المقاومة هناك. سيموت في مكان ما هناك. ولن تريه ثانية أبداً. وكيف تكونين قادرة على البحث عن رجل آخر وأنت في هذه السن؟ لكن كوني عاقلة وأخبرينا عما تعرفينه وسنعيده إليك ثانيةً في الحال.

سيموت في مكان ما هناك. يا حبيبي جو! ما أشقاك! الله أعلم أي نوع من الموت ستلاقيه! لقد قتلوا شقيقتي، وسيقتلون زوجي. وسأُترك وحيدة، وحيدة تماماً، فكيف أبدأ البحث عن رجل آخر، أجل، وأنا في هذه السن... وحيدة، مهجورة حتى نهاية عمري... وأنا قادرة على إنقاذه، سيعيدونه إليَّ... أجل، ولكن بأيّ ثمن؟ لن أكون عندها أنا، ولن يكون هو باباي...

وما نبستْ ببنت شفة.

واختفت في مكان ما من منافي الجستابو التي لا حصر لها. ولم تمضِ إلّا فترة وجيزة حتى جاءت الأنباء عن وفاة جو في بولندة.

ليدا

أوّل مرّة قصدتُ فيها منزل آل باكس كانت في إحدى الأمسيات. كانت جوزكا وحدها في البيت ومخلوقٌ ضئيلٌ ذو عينين حائرتين، يدعونه ليدا. كانت في الواقع ما تزال طفلة، تسترق نظرات فضولية إلى لحيتي، مسرورة لأن الشقة قد حفلت بشيء من الإثارة غير المعهودة قد

تبعث فيها شيئاً من التسلية.

وسرعان ما أصبحنا صديقين. وتبيَّن لدهشتي الشديدة أنَّ هذه الطفلة كانت في الواقع قد بلغت التاسعة عشر من عمرها وأنها كانت الأخت غير الشقيقة لجوزكا وأنّ اسمها هو بلاشا (أي الخجولة)، رغم أنها لم تكن تحمل من اسمها إلا القليل وهي تمارس التمثيل كهاوية للمسرح الذي كانت تحبه أكثر من أيّ شيء آخر.

وأصبحتُ كاتم أسرارها وجعلني هذا أدرك أنّي لم أكن في الواقع إلّا مجرَّد سيّد مُسِنّ: وحدَّثتْني عن أحزان صباها وأحلام صباها وصارت تهرع إليَّ. كما لو إلى حكم، في مشاجراتها مع أختها أو مع زوج أختها. وكانت حادّة المزاج، كما هي عادة البنات اليافعات ومدلَّلة مثل كل الأطفال الذين يأتون آخر العنقود.

ورافقتني أوّل مرة حينما غادرت الدار، بعد ستة أشهر لكي أقوم بنزهة قصيرة. إنّ سيداً مسنًّا يعرج لأقلّ إثارةً للشبهات وهو يخرج بصحبة ابنته ممّا لو كان وحيداً. فالجميع يتطلّعون إليها لا إليه. وكان هذا هو السبب الذي رافقتني من أجله في النزهة التالية. وكان هذا هو الذي جاءت معي من أجله إلى أول موعد سرّي. وكان هذا هو السبب الذي دعاها لمصاحبتي إلى أوّل شقّة سرّية. وبهذه الطريقة كما يقول قرار الاتهام الآن – تطورت الأمور من تلقاء نفسها: فأصبحت بالنتيجة ضابطة ارتباطي.

وأحبت العمل. ولم تشغل ذهناً كثيراً بما يعنيه ذلك وأي نفع سيأتي من ورائه. كان بالنسبة لها شيئاً جديداً ومثيراً للاهتمام، شيئاً غير عادي، فيه نكهة المغامرة. وكان هذا يكفيها وطالما كان الأمر لا يتعدّى الأشياء الصغيرة، لم أشأ أن أطلعها على أي شيء أكثر من ذلك. فالجهل في حالة الاعتقال كان حماية أفضل من الوعي بـ«الذنب».

لكن ليدا تطورت. وأصبحت قادرة على القيام بما هو أكثر من مجرد الذهاب إلى منزل أسرة جيلينيك لتسليم بعض الرسائل الصغيرة. وأصبح من الضروري لها أن تعرف جليَّة الأمر. وبدأت العمل، كان في مدرسة، مدرسة نظامية. وتعلمت ليدا بتفانٍ وسرور. كانت في مظهرها، ما تزال الفتاة الجَذْلة نفسها، الخليِّة القلب، اللّعوب لحدٍّ ماً ولكنها من الداخل كانت قد تبدَّلتْ. بدأتْ تفكّر. ومن هنا تطوَّرتْ.

وفي مجرى عملها تعرفت على ميركو. وكان قد أنجز حتى ذلك الوقت عملاً كبيراً وكان يعرف كيف يضفي عليه طابع الإقناع. وأثّر فيها ذلك. ربما لم تستطع أن تدرك الجوهر

الحقيقي، ولكن في هذه الحالة كنت أنا نفسي غير مدرك لذلك. والشيء الذي كان مهمّاً أنه من خلال عمله ومن خلال إيمانه الظاهري، أصبح أقرب إلى قلبها من أي رجل آخر.

ونما ذلك فيها بسرعة وتعمَّقتْ جذوره.

في مطلع عام 1942 بدأت تستفسر بإلحاح عن عضوية الحزب. ولم أرَها أبداً من قبل بمثل هذا الاضطراب. أبداً لم تنظرْ إلى شيء من قبل بمثل هذه الجديّة. وكنت ما أزال متردِّداً. وواصلتُ تعليمها واختبارَها.

وفي شباط 1942 تمَّ قبولُها عضواً في الحزب عن طريق اللجنة المركزية نفسِها. وكنا عائدين ذات ليلة مثلجة. كانت واجمةً، وهي الثرثارة، صامتةً تماماً على غير عادتها.

وأخيراً، حين كنّا نعبر الحقول قرب الدار، توقّفتْ فجأةً وبهدوء، بهدوء تام لدرجة أننا لم نستطع أن نسمع بلورات الثلج المتساقط، قالت لي:

أعرف أن هذا اليوم كان أهم يومٍ في حياتي. فأنا ما عدت ملك نفسي الآن. أعدك بأني لن أخيّب ظنّكم أبداً. مهما حدث.

ولقد حدثت أمور لا تُعَدّ. ولكنها لم تخيِّبْ ظنَّنا.

حافظتْ على أكثر الصلات قرباً بقيادة الحزب. وأنيطت بها مهمّات على درجة متناهية من الخطورة: أن تعيد تنظيم الاتصالات المقطوعة وتنقذ الاتصالات المهدّدة بالخطر. وحين كانت الخطورة تشتد بوجه الاتصالات على أعلى المستويات أو كانت الحاجة ماسّة لشقّة، تندفع ليدا إلى هناك وتتسلّل بمهارة مثل سمك الحنكليس. وكانت تقوم بذلك مثل السابق: كأنّه أمرٌ عادي وبذلك الجَذَل اللعوب، ولكن بإحساس متين بالمسؤولية.

واعتُقلَتْ بعد شهرٍ واحد من اعتقالنا. لقد ذكر ميركو اسمَها في سياق اعترافاته. وعندها لم يكن من الصعب عليهم التوصل إلى أنها قد ساعدت أختها ونسيبها على الهرب والالتحاق بالحركة السرّية. لقد هزّت رأسها ومثّلت دورَ تلك الفتاة الخليّة البال التي لم تكن تعرف إنْ كان ما تفعله محظوراً عليها وأنها قد تتعرض إلى عواقب وخيمة جرّاء ذلك.

كانت تعرف الكثير ولمْ تقلْ شيئاً. ولكن الأهم من كل ذلك، أنها لم تتوقف عن العمل أبداً. وبتغير الوسط، بدَّلتْ أساليبَ عملها وتبدلّت مهمّاتها. إلّا أن واجبها كعضو في الحزب ما تبدَّل قطّ؛ ألّا تطوي ذراعَيها، مهما كان القطاع الذي وُجدتْ فيه. وراحت تنفّذ كلَّ

المهمات، بتفانٍ، بسرعة ودقة. وعندما كانت الحاجة تستدعي الخروج من وضع مربك، لإنقاذ أحدٍ ما في الخارج، تأخذ ليدا على عاتقها «جريرة» شخصٍ آخر، بذات الوجه البريء، وأصبحت من سجينات الخدمة في بانكراك ويَدينُ عشراتُ الناسِ المجهولين بالفضل لها لأنهم لم يُعتَقلوا. واستمرّ الحال عاماً تقريباً قبل أن يُقطعَ هذا «الدّور» الذي كانت تؤدّيه بسبب اكتشاف الجستابو لرسالة مخفيّة.

إنها تسافر الآن معنا إلى الرايخ للمحاكمة. إنها الشخص الوحيد من كل مجموعتنا الكبيرة الذي يملك أملاً مبرّراً في البقاء على قيد الحياة لتشهد يوم الحرية. إنها ما تزال في ريعان الصبا. وإذا أصبحنا نحنُ في عداد الأموات، فلا تدعوها تضيع. إنّ أمامها الكثير لتتعلّمه. علِّموها، ولا تدعوها تتحجّر. ووجِّهوها. ولا تدعوها تصابُ بالخيلاء أو تنام على أمجادها. لقد برهنتْ على معدنها في أشدّ اللحظات صعوبة. لقد عمَّدتْها النيرانُ ودلَّلت على أنّها جُبلَتْ من معدنٍ جيّد.

ضابطي

إنه لا يعود إلى الشخوص. ولكنه من الأشكال المثيرة للاهتمام وعلى مقياس أكبر لحد ما من الآخرين.

قبل عشر سنوات، في مقهى فلورا في فينوها ردي، حين تريد تسديد الحساب إلى النادل وتبدأ قطع النقد المعدنية ترنّ، يظهر إلى جانبك فجأةً رجلٌ نحيل، طويل القامة، يطير بخفة ودون ضوضاء بين المقاعد، مثل كشّاف على ظهر غواصة، وقد ارتدى بدلة سوداء، ويقدم إليك قائمة الحساب. كانت له حركات حيوان مفترس، سريعة ومتلصّصة وعينان ثاقبتان سنوريتان تريان كل شيء. وأنت لا تحتاج حتى للتعبير عمّا تريده. فهو نفسه الذي يطلب من النُدُل (الطاولة الثالثة، كوب قهوة كبير بالحليب دون قشطة). (النافذة اليسرى، كيك وجريدة ليدوفي نوفني). كان رئيس سقاة جيد للزبائن وزميلاً جيداً للمستخدَمين الآخرين.

لم أتعرف عليه في ذلك الوقت بالطبع. فقد عرفته بعد ذلك بوقت طويل، في شقة آل جيلينيك، عندما كان يمسك بيده مسدّساً، بدلاً من قلم، ويصوّبه نحوي: (... هذا الرجل هو أكثر من يهمّني).

والحق يقال، إن اهتمامنا الواحد بالآخر كان متبادلاً.

كان ذكياً بالفطرة. وكان سيشقّ طريقه بنجاح بالتأكيد في شرطة مكافحة الإجرام. فاللصوص

الصغار والقتلة، وهم معزولون ومبعدون عن أترابهم، لن يتردّدوا في أن يفتحوا قلوبهم له، طالما أنّ شيئاً لا يشغل أذهانهم قدر إنقاذ جلودهم. لكن الشرطة السياسيّة نادراً ما تعثر على أناس من مثل هذه الطينة يقعون في قبضتها. وذكاء الشرطة هنا لا يجابِه مجرّد ذكاء الفرد المعتقَل، بل يجابِه بقوّةٍ أعظمَ من ذلك بكثير معتقدات الفرد وفطنةَ الجماعة التي ينتمي إليها فالذّكاء والضرب لا يكفيان هنا.

ولا يجد المرءُ أيّة معتقدات خصوصية راسخة عند (ضابطي) – كما عند الآخرين وإذا حدث أنْ كانت موجودةً في أيٍّ منهم، فهي مرتبطة بالغباء لا الفطنة، لا بمعرفة الأفكار أو معرفة الناس، وإذا كانوا، على العموم، ما زالوا يملكون معياراً ما للنجاح، فسبب ذلك أن الصراع طويل النفس يجري في مساحة محدودة وفي ظل ظروف أشد صعوبة بما لا يقاس مما هي عليه في أيٍّ نضالٍ سريٍّ آخر. كان البلاشفة الروس يقولون عادةً إنّ شخصاً يصمد عامين لظروف النشاط السرّي مناضلٌ جيّد. ولكن لو أن الأمور ساءت بالنسبة لهم كثيراً في موسكو، فإن بإمكانهم مع ذلك الانتقال إلى بتروغراد ومن بتروغراد إلى أوديسا ليضيعوا هناك بين ملايين الناس، حيث لا يعرفهم أحد. أما هنا فليس أمامك إلّا براغ، وبراغ فقط، حيث يعرفك نصف الناس وحيث يمكن حشدُ رَهَط كبير من المخبرين. ومع كل ذلك وبرغمه فقد صمدنا سنوات، وهناك حتى رفاق عاشوا حياة العمل السرّي خمس سنوات دون أن يعثر عليهم الجستابو. وكان هذا لأننا تعلّمنا الشيء الكثير، أجل وكان هذا أيضاً لأن العدوّ رغم جبروته وضراوته لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى التدمير.

هناك ثلاثةٌ منهم في القسم 2 - أ (1) مِمَّن ذاع صيتُه جرّاء العنف المتناهي في مكافحة الشيوعية وممن يحملون الشريط الأسود والأبيض والأحمر تقديراً لشجاعتهم في الحرب ضد العدو الداخلي: فريدريش، زاندر و(ضابطي) جوزيف بوهم. إنهم لا يتحدثون إلا نادراً عن الاشتراكية القومية لهلتر – فقط بالقدر الذي يعرفونه أنفسهم. إنهم ليسوا محاربين في سبيل أفكار سياسية. فهم لا يقاتلون إلا في سبيل مصالحهم، كل بطريقته. زاندر – مخلوق ضئيل دائم السخط ذو كبد حساس – ربما أكثرهم معرفة بأساليب الشرطة ولكنه أيضاً أكثر معرفة في الصفقات المالية. وقد نُقل لبضعة أشهر من براغ إلى برلين. ولكنه أفلح في العودة إلى مركزه بفضل التوسُّل. فالعمل في عاصمة الرايخ كان في نظره يعادل الحطَّ من شأنه – إلى جانب كونه خسارة مالية. إنّ موظفاً كولونيالياً في إفريقيا السوداء أو في براغ لَهُو رجلٌ أخطر شأناً وأمامه فرصٌ أفضل لزيادة رصيده في البنك. إنه رجل مُجِدّ ويحب القيام بالتحقيق وهو يتناول غداءه. كما لو كان يريد التدليل على نشاطه وهو بحاجة إلى ذلك، لكيلا يرى أحدٌ أنه

ما زال أكثر نشاطاً في عمله غير الرسمي... والويل لمن يقع في قبضته، والويل مرتين لمن يملك رصيداً في البنك أو سندات في الوقت نفسه، فمثل هذا الشخص ينبغي أن يموت في أقرب فرصة، لأن أرصدة البنوك والأسهم هي غرام زاندر الجارف. وهو يعتبر ضابط بمنتهى الكفاءة – في هذا المجال. (وفي هذا يختلف عن مساعده ومترجمه التشيكيّ سمولا الذي يقرب من قاطع طريق جنتلمان لأنه لا يطالب بحياتك إنْ قبض نقوداً).

فريدريش – رجلٌ نحيل، داكن البشرة طويل القامة، له عينان شرّيرتان وابتسامة شرّيرة. جاء إلى الجمهورية كأحد جواسيس الجستابو خلال عام 1937، لكي يساعد على تصفية الرّفاق الألمان في المنفى. إنّ الموتى هم غرامه الجارف. وفي نظره ليس هناك من شخصٍ بريء. فكلُّ من تطأ قدماه عتبة مكتبه مذنب. وهو يجد متعة في التحدث إلى النساء عن أزواجهن الذين ماتوا في معسكرات الاعتقال أو تم إعدامهم. ويحب أن يُخرج من درج مكتبه سبع قوارير رماد ويعرضها على أسراه:

- أنا الذي قتلت هؤلاء السبعة بهاتين اليدين. وستكون أنت الثامن.

(وقد أصبحوا ثمانية الآن، لأنه قام بعدها بقتل جان زيزكا) كما يجدّ في تصفح الإضبارات القديمة ويلاحظ قائمة الموتى برضى: «انتهى! انتهى!» وهو يتلذّذ على الخصوص بتعذيب النساء.

إن شغفه بالتّرف لا يعدو عن كونه نافعاً مساعداً لنشاطه البوليسي. شقة جيدة التأثيث أو حانوتٌ مكدَّس بالأقمشة الجيدة، يعجّلان بموتِك لا أكثر.

مساعده التشيكيّ، نيغر، أقصر منه بنصف قامة – بقدر تعلق الأمر بطول القامة. وفيما عدا ذلك، ليس هناك أي فرق بينهما.

بوهم – ضابطي – ليس عنده ذلك الهوى الجارف لا للمال ولا للموتى، رغم أن كفاءته في هذا المجال لا تقلّ عن الاثنين الآخرين. إنه مغامر يطمح أن يكون شيئاً ما. لقد عمل لحساب الجستابو فترة طويلة. وكان نادلاً في صالون نابليون أثناء اجتماعات بيران السرية – وما كان بيران لا ينقله إلى هتلر، يكمّله بوهم نفسه. ولكن ما قيمة كل هذا مقارنة بفرصة اصطياد الناس وأن يكون سيد حياتهم وموتهم، يقرر مصائر عائلات بأكملها.

ولم يكن مهمّاً بالنسبة له دوماً أن تنتهي الأمور على نحو محزن لكي يشعر بالرضا. ولكنه إذا لم يستطع أن يبرع بأية طريقة أخرى، فإنه من القدرة بحيث يجعل الأمور تسوء أكثر من ذلك

بكثير. فما الجمال ومال الحياة، قياساً إلى مجد الهيروسترات؟

وقد يكون هو أكثر الثلاثة نشاطاً في بناء شبكة واسعة من المخبرين. صياد يملك رهطاً ضخماً من كلاب الصيد. وكان يصطاد – وفي الغالب لمجرد الرغبة الصِّرف في ذلك. وكان التحقيق بالنسبة له معظم الأحيان عملاً مضجراً. فنشاطه الرئيس هو القيام بالاعتقالات ويرى الناس يقفون أمامه وهم بانتظار قراراته. مرة اعتقل ما يقرب من مائتي سائق وجابي في الحافلات والباصات، والباصات الترولي، وأوقف حركة المرور وأثار الرعب. وعندها شعر بالسعادة. ثم أطلق سراح مائة وخمسين منهم، مسروراً من اعتقاده أنّ مائتين وخمسين عائلة ستتحدّث عنه كإنسان طيّب.

كانت قضاياه من هذا النوع عادة، نطاقها واسع ولكن من دون أهمية تذكر. أمّا أنا الذي اصطادني صدفة، فقد كنت قضية استثنائية.

«أنت قضيّتي الكبرى» كان يردّد علَيَّ ذلك غالباً وكان فخوراً أنني أدرجت ضمن أخطر القضايا كلها. وقد تكون هذه الواقعة هي التي أطالت في عمري.

كنا نكذب على أحدنا الآخر بكل وسيلة ممكنة، ودون انقطاع، ولكن بعناية. وكنت أنا واعياً بذلك دوماً، أما هو فأحياناً. ومتى ما كانت الكذبة مفضوحة، كنا نتجاهلها بإتقان ضمنيّ. وأحسب أنه لم يكن مهتمّاً لتلك الدرجة بالتوصل إلى الحقيقة قدر اهتمامه ألّا يبقى هناك ما يثير الشكوك حول (قضيته الكبرى).

لم تكن العِصِيّ ولا الحديد في رأيه الوسيلة للتحقيق. كان يفضّل التعنيف أو التهديد تبعاً للكيفيّة التي يزِنُ بها (رجله). ولم أُعذَّب على يديه أبداً، ربما عدا الليلة الأولى. ولكن حين يناسبه ذلك، فإنّه يعهد بي إلى الآخرين.

وكان دون ريب أكثر إثارة للاهتمام وأكثر تعقيداً من جميع الآخرين، كان يملك ثروة من الخيال وكان يعرف كيف يستخدمها. مرة ذهبنا إلى اجتماع مدبَّر في برانيك. وجلسنا هناك في حديقة خمّارة. تطلّعنا إلى حشود الناس المتدفقة حولنا. قال لي: لقد اعتقلناك فانظرْ حولك: هل تبدّل شيء ما؟ ها هي الناس تمشي كما في السابق، تضحك أو أن لها مشاغلها، كما كانت قبلاً، والدنيا تدور، كما لو أنك لم تكن موجوداً أبداً. ولا بد أن بينهم بعضاً من قرائك – أتظن أن تجاعيد وجوههم قد زادت حتى ولو واحدة بسببك؟

وفي مرة أخرى وكان ذلك بعد يوم كامل من التحقيق، وضعني بسيارة وأخذني في جولة عبر

مساء براغ إلى هرادكاني التي تطل على شارع نيرودا:

- أعرف كم تحب براغ. انظر! ألا تودُّ أحياناً أنْ تعود إليها؟ كم هي جميلة! وستكون جميلة حتى وأنت غير موجود فيها...

كان بارعاً في تمثيل دور الغاوي. كان المساء الصيفي يملأ المدينة بنُذُر الخريف. وكان مزرقّاً ومضيئاً مثل كرمة ناضجة، ومسكرة كالخمر. كان بودي أن أواصل النظر حتى نهاية الدنيا... لكني قاطعته:

- وستكون أكثر جمالاً عندما لا تكونون أنتم موجودين هنا.

وضحك لحظة، دون حقد، إنما بِلَمسةِ حزنٍ وقال:

- إنك وقح.

وكان غالباً ما يتذكّر تلك الأمسية:

عندما لن تكون هنا... إذن ما زلت لا تعتقد بأننا سننتصر؟

لقد تساءل، لأنه هو نفسه كان في شك من ذلك. وكان يصغي بانتباه عندما أحدّثه عن قوّة ومَنَعَة الاتحاد السوفياتي. وذاك، بالمناسبة، كان أحد آخر التحقيقات التي جرتْ لي.

زوج مشدّات – إنترميتزو

قرب الباب المقابل لزنزانتي يتدلّى زوج مشدّات. زوج مشدّات رجالية عاديّ. وهو شيءٌ لم أحبّه أبداً. أما الآن فإني أتطلّع إليه بفرح كلما كان باب زنزانتنا مفتوحاً: وأرى منه شعاعاً من الأمل.

حين تعتقل، ربما يضربونك حتى الموت، ولكنهم قبل كلّ شيء يجرّدونك من ربطة العنق أو المشدّات حتى لا يكون بوسعك أن تشنق نفسك بها (مع أن بإمكانك أن تفعل ذلك تماماً بملاءة). أدوات الموت الخطرة هذه تحفظ إذن في دائرة السجن حتى يتقرّر لك في الجستابو مصيرٌ مجهول يكون عليك بموجبه أن ترسَل إلى مكان ما آخر: للعمل في معسكر اعتقال أو إلى ساحة الموت. عندما ينادون عليك ويسلّمونها لك بوقار رسميّ، لكنك لا تستطيع أن تُدخلها معك إلى الزنزانة. عليكَ أن تعلّقها خارج الباب أو على الحاجز المقابل، وتبقى معلَّقة هناك حتى لحظة رحيلك، كعلامة مرتبة على أنّ أحد نزلاء الزنزانة متهِّيء إلى

مزارٍ غير مرغوب.

ظهر زوجٌ من المشدّات مقابل زنزانتنا في اليوم ذاته الذي علمت فيه بالمصير الذي أُعِدَّ لجوستينا. إنَّ رفيقاً ما في الزنزانة المقابلة لزنزانتي سوف يُرسَل إلى العمل في الوجبة نفسها التي ستنقل فيها. لكن وجبة النقل لم ترحل حتى الآن. فقد أجّلت على حين غرّة، وفي الظّاهر لأن المكان الذي كانت ستقصده قد قُصِفَ قصفاً شديداً. (احتمال جميل آخر). ما من أحد يعرف متى سيتم ذلك. ربما هذا المساء، ربما غداً، أو في غضون أسبوع أو أسبوعين. إنّ المشدات معلّقة هناك طيلة الوقت. وأعرف أنا: طالما كنت أراها، فمعنى ذلك أنّ جوستينا ما زالت في براغ. وهكذا أتطلّع إليها بفرح ومحبّة كأنّما إلى إنسان ما يمدّ لها يد العون. لقد ربحت يوماً، اثنين، ثلاثة... من يدري أيُّ خيرٍ قد يأتي من ذلك؟ ربّما يستطيعُ هذا اليوم بالذات أن ينقذَ حياتَها.

كلنا نعيش في هذه الحالة. اليوم، قبل شهر، قبل عام – نستدير إلى الغد وحده دوماً، الذي فيه يوجد الأمل. إن مصيرك قد تقرّر، فبعد غد سترُمى – آه، ولكن من يدري ماذا يمكن أنْ يقع غداً! عشْ للغد لا غير، فغداً كل شيء يمكّن أنْ يتغيّر، وكلُّ شيء غير مستقرّ لدرجة، أجل، من يدري ماذا يمكن أنْ يقع غداً؟ والغَدَوات تمرّ. والآلاف تموت، وآلافٌ ليس لها غد، لكن الأحياء يواصلون الحياة بأمل لا يتغير: غداً، من يدري ماذا يمكن أن يقع؟

إن أكثر الإشاعات حماقة تنجم عن ذلك – كل أسبوع يطلع موعدٌ وهميّ لنهاية الحرب، وكل امرئٍ يتشبّث به بأسنانه كلّها، كل أسبوع تهمس بانكراك بأخبارٍ مفرحة جديدة مثيرة، والتي يجري تصديقها بسرور. وأنت تكافح هذا، تناضل ضدّ الآمال الكاذبة لأنها لا تشدُّ من عزيمة المرء، بل تُضعِفُها. التفاؤل لا يجوز له، ولا ينبغي، أن يتغذّى على الأكاذيب، بل على الحقيقة، على رؤية واضحة للنَّصر لا تتزعزع – لكن الواقعة الأساسية تظلّ فيك: إنّ هذا اليوم بالذات قد يكون حاسماً وإنّ اليوم الذي تربحهُ قد يساعدك على عبور الحدّ الفاصل، بين الحياة التي لا تريد أنْ تتركها والموتِ الذي يهدِّدك.

أيامٌ معدودات هنّ حياة الإنسان. ومع ذلك فأنت تودّ لو أنها تمرّ بسرعة، أسرع، بأسرع ما يمكن. فالزمن، الهارب والمتملِّص، الذي يستنزف الحياة منك. هو صديقك. ما أغرب ذلك!

لقد أصبح الغدُ أمس. وبعد الغد أصبح اليوم. ومرَّ هذا أيضاً.

وما زالت المشدّات قرب باب الزنزانة المقابلة معلَّقة.

الفصل السادس
الأحكام العرفية 1942

27 أيار 1943

كان ذلك منذ عام واحد بالضبط.

من الاستجواب اقتادوني تحت إلى «السينما». كان هذا هو المزار اليومي لغرفة 400. عند الظهر تحت إلى الغداء، الذي يأتون به من بانكراك، وبعد الظهر إلى الطابق الرابع ثانية. لكننا لم نصعد ثانية هذا اليوم.

أنت تجلس وتتناول طعامك. المصطبات تغصّ بالمعتقلين المشغولين بالملاعق والمضغ. ويبدو ذلك إنسانياً تقريباً. ولو أن كل هؤلاء الذين سيكونون في عداد الموتى غداً يتحوّلون اللحظةَ إلى هياكل عظمية، فإن ضوضاء الملاعق وآنية الفخار ستختفي فجأة في صلصة العظام والاصطكاك الجافّ للفكوك. ولكن حتى الآن لا يوجد عند أحد أيُّ تصوِّر لهذا الأمر. فكلُّ واحد يُطعمُ جسدَه بلذَّة، ليبقى على قيد الحياة أسابيع أو أشهر أوْ سنوات أخرى. ويكاد المرء أنْ يصفَ ذلكَ بكلمةٍ واحدة هي السَّلوى. ثمّ تأتي فجأةً لفحةُ ريح شديدة. والسكون ثانيةً. وحدَها وجوه السجَّانين يمكن أن تنبئ أنّ شيئاً ما قد حدث. وبدقة أكبر، بعد لحظة، من واقع أنهم نادوا علينا وصفُّونا من أجل رحلة العودة إلى بانكراك. في منتصف النهار! شيء غير عادي. نصف نهار دون تحقيق في وقت تكون فيه منهكاً من الأسئلة التي ليس عندك أيُّ جوابٍ لها – كأنَّ ذلك مثل هدية من الرّب. أو هكذا يبدو. ولكنّه ليس كذلك.

في الممرّ نلتقي بالجنرال إلياس. عيناه تغصّان بالانفعال. ويلمحني ويهمس وسط حشد السجانين:

- الأحكام العرفية.

ولم يكن أمام المعتقلين إلّا بضع ثوان لنقل هذا النبأ الأكثر أهمية. ولم يكن لديه وقت للرد على تساؤلي الصامت.

ودهش السجانون من بانكراك في عودتنا المبكرة. وكان السجان الذي اقتادني إلى زنزانتي

يوحي بالثقة المتناهية. لا أعرف بعد من يكون، لكني أخبره بما سمعت. فيهزّ رأسه. إنه لا يعرف شيئاً. ربما لم أسمع جيداً. أجل، ربما. وهذا أبعَثُ على الارتياح.

لكن في المساء ذاته يعادُ ريثل إلى الزنزانة:

- أنت على حق. محاولة اغتيال هيدريش. إصابته خطيرة. الأحكام العرفية في براغ. صباح اليوم التالي في الممر ليقتادونا إلى التحقيق، بيننا الرفيق فيكتور سينيك، آخر الأحياء من أعضاء اللجنة المركزية للحزب، الذي اعتقل في شباط 1941. ويلوّح سجان طويل ببزة الأس أس بورقةٍ بيضاء أمام وجهه، يمكنك أن تقرأ فيها بحروف واضحة:

«أمر بالإفراج».

قهقه بوحشية.

- هاك، أيها اليهودي، لقد حصلت أخيراً على ما كنت تريد. الأمر بإطلاق السراح! فيكـــ...

وبإشارة إلى رقبته، بين ما الذي كان بانتظار رأس فيكتور. كان أوتوسينيك أول من أعدم عندما أعلنت الأحكام العرفية عام 1941. وأصبح شقيقه، فيكتور، أول ضحية للأحكام العرفية عام 1942. واقتادوه إلى موتهاوزن. ليعدم رمياً بالرصاص، كما عبّروا عن ذلك بلطف.

وأصبح الطريق الآن من بانكراك إلى قصر بيتشيك العذابَ اليومي لآلاف المعتقلين. ورجال الأس أس أثناء الواجب في الشاحنات «يثأرون لهيدريش». وقبل أن تقطع عربة السجن كيلومتراً واحداً، يأخذ الدم يسيل من أفواه ورؤوس المعتقلين جرّاء الضرب بأعقاب المسدسات. وصار حضوري في الشاحنة منفعةً للآخرين الآن، ذقني الملتحية كانت مبعثَ جاذبية لرجال الأس أس، تغريهم بصنع نكات مبتكرة. وكانت واحدة من متعهم المفضلة استخدام لحيتي كسَيرٍ يتعلَّقون به وهم داخل الشاحنة المرتجة. وكان هذا بالنسبة لي مراناً جيّداً للتحقيق الذي كان يوازي الوضع برمته والذي ينتهي بالجملة المعتادة:

- إذا لم تكن أعقل غداً، فسوف تُرمى.

ولم يعد في هذا ما يثير الفزع الآن. فأنت تسمعهم، مساءً بعد مساء، وهم ينادون على الأسماء تحت في الممر – خمسون، مائة، مائتان، يُشحنون بعد لحظة في الشاحنات، مربوطين معاً

مثل خراف في طريقها إلى المجزرة، وينقلونهم إلى كوبيليسكي لساحة الإعدام الجماعي. وذنبهم؟ قبل كل شيء واقع أنهم بلا ذنب. لقد اعتقلوا دون أن يكونوا مرتبطين بأية قضية خطيرة وليست هناك حاجة للتحقيق معهم أبداً وهكذا فإنهم مناسبون للموت تماماً. قصيدة هجائية قرأها أحد الرفاق على تسعة آخرين أدّت إلى اعتقالهم قبل شهرين من محاولة اغتيال هيدريش. ها هم الآن ينقلون إلى حتفهم الأخير بتهمة تحبيذ الاغتيال. قبل نصف عام اعتقلت امرأة بتهمة توزيع منشورات ممنوعة. ونفتْ هي التهمة. وهكذا اعتقلوا الآن شقيقاتها وأشقاءها وأزواجهن وزوجاتهم أيضاً ونفّذوا حكم الإعدام بهم كلهم. لأن إبادة عائلات بأكملها كان شعار الأحكام العرفية. أحدُ سُعاة البريد اعتُقِلَ خطأً، يقف تحت الجدار منتظراً إطلاق سراحه، يسمع اسمه ينادى عليه فيتقدّم إلى أمام. ويصفّونه في طابور المحكومين بالإعدام ويقتادونه ويطلقون النار عليه ويكتشفون في اليوم التالي أن هناك رجلاً آخر بنفس الاسم كان ينبغي أن ينفَّذَ فيه حكم الإعدام. وهكذا يعدمون الرجل الآخر أيضاً وتوضع الأمور في نصابها. التأكد من التفاصيل الشخصية المضبوطة للناس الذين سيعدمون – من يمكن له أن يضيّع وقته على شيء كهذا! أَوَلَيسَ هذا أمراً لا طائل تحته طالما أن حياة أمّة برمتها مهدَّدة بالموت؟

عُدْتُ من التحقيق، آخر المساء. تحت يقف عند الجدار فلاديسلاف فانكورا وصرّة صغيرة بأغراضه عند قدميه. أدرك ما يعني هذا. وهو يدرك ذلك أيضاً. نتصافح. ما زلت قادراً أن أراه من أعلى في الممر. كيف يقف هناك ورأسه منحنٍ لحدٍّ ما وهو يحدّق بعيداً، بعيداً عبر الحياة كلها. بعد نصف ساعة نادوا على اسمه...

بعد بضعة أيام وقف ميلوش كراسني عند الجدار نفسه – جنديٌّ مقدام من جنود الثورة، اعتُقل في تشرين أول من العام الماضي، لم يحطم عزيمته التعذيب والحبس الانفرادي. لقد استدار على النصف بعيداً عن الجدار وأخذ يشرح بهدوء أمراً ما إلى السجان الذي يقف وراءه. يلمحني فيبتسم ويهزّ رأسه مودّعاً ويواصل حديثه:

لن ينفعكم هذا أبداً: سيسقط كثيرون منّا، لكنكم أنتم ستنهزمون... يوماً آخر عند الظهر، ونحن نقف في جوف قصر بيتشيك بانتظار الغداء، جيء بإلياس. كانت تحت إبطه جريدةٌ يشير إليها بابتسامة: لقد قرأ فيها لتوِّه عن علاقته بأولئك الذين نفّذوا محاولة اغتيال هيدريش.

- هراء!

قال باقتضاب وشرع يأكل.

وواصل الكلام عن ذلك بمزاح خلال المساء عند عودته إلى بانكراك مع الآخرين. بعد مضي ساعة، اقتادوه من زنزانته وأخذوه إلى كوبيليسكي.

أكوام الموتى تعلو، لا تعد بالعشرات أو المئات بل بالآلاف. والدم الطريّ أبداً يثير شهية الضواري. إنهم «يعملون. حتى ساعة متأخرة من الليل»، يعملون حتى أيام الآحاد. وها هم الآن يرتدون بزات الأس أس، إنه يوم عيد لهم، عيد الذبح. وهم يرسِلون إلى الموت العمّالَ والمعلمين والفلّاحين والكُتّاب والموظَّفين: إنهم يقتلون الرجال والنساء والأطفال. إنهم يبيدون عائلاتٍ بأسرها، إنهم يقتلون ويحرقون قرىً برمّتها. والموت بالرصاص ينتشر على الأرض كالطاعونِ دون أن ينتقي ضحاياه.

والإنسان وسط هذا الرعب؟

يعيش.

إنه لأمر لا يصدق. لكنّه يعيش، يأكل، ينام، يعشق، يعمل ويفكّر بألف شيء لا علاقة له بالموت أبداً. ربما في مكان ما فوق عنقه يجلس هناك ثقلٌ مروِّع، لكنّه يحمله، دون أن يحني رأسه أو ينهار بسببه.

وفي فترة الأحكام العرفية هذه، أخذني الضابط إلى برانيك. كان مساءَ أحدٍ جميل في حزيران عبقَ بأشجار الزيزفون وآخر أزهار السَّنْط. لم يكن الطريقُ إلى محطة الباصِ عريضاً بما يكفي ليسع الدفق المسرع للناس العائدين من أعمالهم. وكانوا صاخبين وجَذلين، تعِبين بسعادة، تعانقهم الشمس والماءُ وأذرع أحبتهم – إلّا الموت، الموت وحده، المنتشر باستمرار حولهم، يبحث عن ضحاياه بينهم، لم يكن بالوسع أن تلمحه في قَسَماتهم وهم يتدفّقون حشوداً جذلة وجيبةً كالأرانب. كالأرانب! ضع يدك بينهم والتقط أحداً منهم تتسلّى به – سينكمشون في زاوية، ولكن ما إن تمضِ لحظة أخرى سيزدحمون بمشاغلهم ومسرّاتهم، بكلّ رغبتهم في الحياة.

لقد انتزعت فجأة من عالم السجن المسوَّر إلى هذا الطوفان الكاسح وتذوّقت بمرارة من البدء مذاقَ سعادتهم العذبة.

من دون حقّ، من دون حقّ.

فهذا الذي رأيته هنا كان حياة، الحياة التي منها أتيت، حتى هذه التي هنا، بكليتها، الحياة تحت وطأة الضغط الرهيب، غير قابلة للدمار، تُقتَل في واحد وتنبتُ في مائة، الحياةُ التي تفوق الموت قوّةً، أهذه ينبغي أنْ تكون مرّة؟

ثم: ماذا عنّا، نحن الذين في الزنزانات، نعيش في قلب هذا الرعب – أنحن من طينة أخرى؟

كنت أذهب إلى التحقيق أحياناً في سيارة الشرطة، حيث يتصرّف الحرس بلطف، وكنت أتطلّع من النوافذ إلى الشوارع، إلى واجهات المخازن، إلى كشكٍ للزهور، إلى حشود السابلة، إلى نساء. مرة قلت لنفسي لو أني عددت تسعة أزواج من السيقانً الجميلة، فلن أُعدَم اليوم. وهكذا بدأت أعد وأفحص وأقارن وأدرس بعناية خطوطَها، وأفقت ورفضت بانشغال جارف، لا كما لو أن حياتي تتوقّف عليها، بل كما لو أن الحياة ذاتها لم تكن بأيِّ خطرٍ أبداً.

وكالعادة، عدتُ إلى الزنزانة في وقت متأخِّر. ويكون الأب بيشيك يسائل بقلق نفسَه: هل سيقدَّر له أن يعود ثانيةً أبداً؟ ويعانقني وأقص عليه باقتضاب أية أخبار هناك، من أعدم يوم أمس في كوبيليسكي – وبعدها نزدردّ الخضار اليابسة المقرِفة، ننشد بعض الأغنيات الجذلة أو نعلب بكابه لعبة غبيّة بالزار ونستغرق فيها كلياً. ويقع ذلك في تلك الساعات من الأماسي حيث يمكن أن ينفتح فيها باب زنزانتنا في أية لحظة وتطرق رسالةُ الموت أحدَنا:

انزلْ! اجلب كلّ حوائجك؟ بسرعة!

ولم يستدعونا تلك المرة. وكتبت لنا النجاة من تلك الفترة المرعبة. وها نحن اليوم نستعيد ذكراها. مندهشين في مشاعرنا ذاتها. ما أغرب تكوين الإنسان وما أقدره أن يتحمل ما لا يمكن تحمّله!

من المحال طبعاً ألّا تترك مثل هذه اللحظات آثارها العميقة في مكان ما منّا، ربما كانت مطوَّبة مثل بكرة فيلم مخفيّة في الدماغ وستبدأ ذات يوم تتطوّر إلى جنون في الحياة الحقيقية، إذا قدر لنا أن نعيش حتى ذلك اليوم ولكن ربما سيكون الأمر أننا سنراها مجرّد مقبرة واسعة، حديقة خضراء زرعوا فيها بذوراً غالية.

بذوراً غالية ستنبت ذات يوم.

الفصل السابع
شخوص وأشكال

بانكراك

للسجن حياتان، واحدة مغلقة داخل الزنزانات، معزولة بقسوة عن العالم برمّته ومع هذا فهي ترتبط به بأمتن الصلات الممكنة حيثما كان هناك سجين سياسي. والأخرى خارج الزنزانات، في الممرات الطويلة، في شبه الظلمة القاتمة، عالم قائم بذاته، موحد وأكثر عزلة من العالم داخله، عالم في أشكال كثيرة وشخوص قليلة. وهذا ما أريد أن أكتب عنه.

إنه عالم يملك تاريخاً طبيعياً وكذلك تاريخه الخاص. ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطعت أن أعرفه بهذا العمق. ولعرفت فقط الكواليس المواجهة لنا، سطحها فقط، المنسجم في ظاهره، والراسخ في ظاهره، ثقل حديدي يضغط على نزلاء الزنزانة. وقد كان الأمر على هذا النحو قبل عام مضى، قبل نصف عام مضى. لكن السطح اليوم مليءٌ بالشروخ ووجوه تبصبص من خلالها – مسكينة، رؤومة، منهكة من الهمّ، مضحكة، متنوّعة تماماً، لكنها تنتمي دوماً إلى الحياة الإنسانية. إن ثقل نظام السجن يضغط على كلّ فرد من أفراد هذا العالم الأقل ويعتصر في وضح النهار كل ما هو إنسانيّ فيه. أحياناً هناك القليل وأحياناً أخرى هناك ما هو أكثر من ذلك بقليل – إن هذا المقدار يميّزهم ويشكّل منهم نماذج. وتجد بالطبع بعضاً منهم حتى بشراً حقيقيين. لكن هؤلاء لم ينتظروا. وهم لا يحتاجون إلى لسعة الألم الممضّة لكي يمدّوا يدَ العون إلى الآخرين مِمَّن يتألمَّون.

إن السجن مؤسَّسةٌ مقبضة. لكن العالم خارج الزنزانات يثير انقباضاً أشد مما هو عليه في الزنزانات. في الزنزانات تعيش الصداقة – وأية صداقة! تلك الصداقة التي تولد في جبهة النضال، في فترات الخطر الطويلة حيث يمكن أن تكون حياتك اليوم في يدي وغداً حياتي في يدك. بين حراس هذا النظام الألمان هناك صداقة ضئيلة للغاية. وهي لا يمكن أن توجد. فهم محاطون بجوّ الوُشاة، أحدُهم يتعقَّب الآخر ويكتب التقارير عنه. كلُّ واحد حذر لنفسه ضدّ أولئك الذين يسمّيهم رسمياً (الرفاق). وأفضل من فيهم ممن لا يستطيع ولًا يرغب أن يبقى دون صاحب يبحث عنه في الزنزانات.

لفترة طويلة لم تعرفهم بأسمائهم. ولم يكن هذا مهمّاً. ففيما بيننا كنا نسميهم بأسماء الكنية

التي أطلقناها عليهم أو من سبقونا والتي راحت تتناقل في الزنزانة. وكان للبعض كنىً بقدر عدد الزنزانات: وهذا هو النمط الشائع. لا هو سمكة ولا هو سرطان بحري، فهو هنا يزيد من حصة الأكل، وفي الزنزانة التالية يقوم بضرب معتقل في الوجه – إنها لحظات لا غير من الاحتكاك بالمعتقلين، لكن هذه اللحظات تترك بصماتها التي لا تمحى في ذاكرة الزنزانة وتصنع صورةً وحيدةَ الجانب وكنية وحيدة الجانب. ومع هذا فإن الزنزانات كلها تتفق على الكنى. في حالة أولئك الذين تكون شخصياتهم أكثر تحديداً. كهذا أو ذاك. طيب أو شرير. انظروا إلى هذه النماذج! انظروا إلى هذه الأشكال! إنهم لم يجمعوا معاً اعتباطاً. إنهم جزء من جيش النازية السياسيّ. أناس منتقون. أعمدة للنظام وركائز لمجتمعه...

السامري

رجل متين البنية طويل القامة ذو صوت واهن رفيع. هذا هو رهويس (الأس أس الاحتياط) البوّاب السابق في إحدى مدارس كولون. ومثل كل بوابي المدارس الألمان دخل دورات في الإسعاف الأولي وكان ينوب أحياناً عن الموظف الصحّي للسجن. وهو أول من تعرّفت عليه هنا. لقد سحبني داخل الزنزانة وسجّاني على فراش القش، وداوى جروحي ووضع أولى الكمّادات عليها. ربما ساعدني حقّاً على إنقاذ حياتي. فأيُّ شيء كان ذلك: أتعبير عن كائن إنساني؟ أم دورة في الإسعافات الأولية؟ لا أدري. ولكن كان من المؤكد أن النازية هي التي تجسّدت فيه عندما حطّم أسنان يهود معتقلين وأرغمهم على ابتلاع ملء ملعقة من الملح أو الرمل على أنه دواءٌ شامل ضدَّ كلّ أنواع السقام.

الشمام

ثرثار طيّب، سَمِحُ الطبع، عمل حوذيّاً في مصانع البيرة في بوديجوغيس. اسمه الحقيقي كان فابيان. كان يدخل الزنزانة بابتسامة عريضة وهو يحمل الطعام ولم يسبّب الأذى لأحد أبداً. ولن تصدق مطلقاً أنه كان يقف الساعات الطوال خلف الباب يسترق السمع لما يدور في الزنزانة ليكون بوسعه أن يهرع إلى السلطات حاملاً لها كل نتفة من الأخبار التافهة المضحكة.

كوكلار

هو الآخر من عمال البيرة في بوديجوفيس. هناك عدد منهم هنا. هؤلاء العمال الألمان من أرض السوديت. كتب ماركس (ليس المهمّ هو ما يفكر به العامل أو يقوم به، بوصفه فرداً،

لكن المهمّ هو ما ينبغي على العمّال كطبقة أن يقوموا به. من أجل تحقيق مهمّتهم التاريخية). وهؤلاء الذين هنا لا يعرفون أيّ شيء حقّاً عن مهمّة طبقتهم. ولأنهم سلخوا عنها ووضعوا ضدّها فإنهم معلّقون في الهواء أيديولوجيّاً ومن المرجَّح أن تكون أعمالهم كذلك تماماً.

انضمَّ إلى النازية ليؤمِّنَ لنفسه مورد رزق أيسر. فتبيّن له أنّ الأمر أكثر تعقيداً مما تصور. ومنذ ذلك الحين فقدَ ابتسامتَه. لقد راهن على انتصار النازية، فتبيَّن له أنه كان يراهن على حصانٍ ميت. ومنذ ذلك الحين فقد أعصابه. أثناء الليل، وهو يجوس ممرّات السجن وحيداً بحذاءٍ خفيف، يترك فوق غبار مظلّات النور آثار أفكاره المقبضة.

كل شيء قد ضاع.

كتب هناك بشاعرية وهو يفكر بالانتحار.

في النهار يستحثّ المعتقلين والسجناء، يصيح عليهم بصوتٍ ثاقب مبهور لكي يتغلّب على مخاوفه.

روسلر

شخصٌ نحيلٌ طويل القامة، ذو صوتٍ جهير خشن. إنه أحد الأشخاص القلائل القادرين على أن يضحكوا بصدق. عاملُ نسيجٍ من ضواحي جابلونيك. يلج الزنزانة ويظلّ يناقش – ساعات وساعات.

كيف تورَّطتُ في هذه الشغلة؟ عشر سنوات وأنا دون عمل مناسب. عشرون كروناً في الأسبوع لعائلة بأسرها – أتعرفون معنى حياة كهذه؟ ثم جاؤوا وقالوا لي: تعالَ معنا وسنعطيك عملاً. ورُحت معهم – وأعطوني العمل، أنا وجميع الآخرين. يمكننا أن نأكل. يمكننا أن نحصل على أسباب الراحة. يمكننا أن نعيش. الاشتراكية؟ حسناً، إنها ليست اشتراكية نعم. وقد حسبت أن الأمر سيكون مختلفاً. لكنه أفضل من السابق.

ليس هذا صحيحاً؟ الحرب؟ أنا ما أردت الحرب. أنا ما أردت الناس الآخرين أن يموتوا. أردت أن أعيش لا غير.

أنا ساعدت على إشعالها، شئت ذلك أم أبيت؟ وماذا سأفعل الآن؟ هل أنزلت الأذى بأحدٍ هنا؟ لو أني ذهبت، سيحل آخر محلي. أسوأ ربما فهل أساعد أحداً بهذه الطريقة؟ حين تضع

الحرب أوزارها، إلى المصنع... من الذي سيربح الحرب في اعتقادكم؟ ليس نحن؟ أنتم؟ وماذا سيكون مصيرنا؟ النهاية؟ وا أسفاه. تصوّرتها ستنتهي على غير ذلك.

ويغادر الزنزانة بخطوات واسعة لا مكترثة.

بعد نصف ساعة يعود، يسأل عن حقيقة الوضع في الاتحاد السوفياتي.

«هذا».

ذات صباح كنا ننتظر تحت، في الممر الرئيسي لبانكراك، لكي يقتادونا إلى التحقيق في قصر بيتشيك. كل يوم كنا نقف هكذا، جباهنا قريبة من الجدار، لكيلا نرى ما يجري خلفنا. هذا الصباح، على أية حال، كان الصوت الذي كان خلفنا جديداً علَيَّ:

- أريد ألّا أرى شيئاً، أريد ألّا أسمع شيئاً! أنتم لا تعرفونني، لكنكم ستعرفونني عاجلاً!

ضحكت. في الترويض هنا، لدينا قولٌ شائع مأخوذ عن ذلك المغفَّل البائس الملازم دوب في رواية (الجندي الطيب شفيك) يطابق واقع الحال تماماً. وحتى اليوم، لم يكن هناك من واتته الجرأة على رواية هذه النكتة بهذا العلن. لكن لكزةً ملحوظة من جارٍ أكثر خبرة حذَّرتْني من الضحك – ربما كنت على خطأ، ولم يكن القصد من وراء ذلك المزاح. لم يكن نكتة.

كان الشيء الذي نطق بتلك الكلمات وراءنا مخلوقاً ضئيلاً لا يلفت النظر ببزة الأس أس والذي كان واضحاً أنه لا يعرف أبداً من هو شفيك هذا. لقد تكلّم مثل الملازم دوب لأنه كان توأمه روحيّاً. إن اسمه فيثان ومثل فيثان كان له سجل خدمة طويل كرقيب في الجيش التشيكوسلوفاكي. وكان «هذا» على حق. إذ إننا تعرفنا عليه على نحو جيد بعدئذ ولم نتحدّث عنه إلا كنكرة: «هذا». وبصراحة كانت مخيّلتنا المبتكرة قد نضبت عندما كان علينا أنْ نجد كنيةً مناسبة لهذا المزيج الثريّ من التفاهة والبلادة والتبجُّح والفسق التي كانت الركائز الأساسية لنظام بانكراك.

إنهم كعوب أحذية، كما يسمي ذلك أبناء الريف أولئك الوصوليين المتبجّحين التافهين، لتجريحهم في أكثر المواضع حساسية. أية ضآلة روحية تلك التي تجعل إنساناً يتعذّب من الضآلة الجسدية؟ إن فيثان يتعذب منها ويثأر لذلك من كل شيء أعظم منه جسدياً أو روحياً، ومعنى هذا كل شيء.

وهو لا يثأر بضرب الناس. فهو لا يملك الجرأة الكافية لذلك. بل بالوشاية بهم. فما أكثر

المعتقلين الذين دفعوا صحّتهم ثمناً لوشاية فيثان. وما أكثر من دفعوا حياتهم ثمناً لذلك. فلم يكن نوع المحضر الذي يرافقك في بانكراك إلى إحدى معسكرات الاعتقال، أمراً لا أهمية له، هذا إذا قدّر لك أن تخرج أبداً وأنت على قيد الحياة.

إنه مثير للضحك تماماً. فهو يطير على طول الممر بوقار انفرادي ويحلم بأهميته الكبيرة. وحال أن يصطدم بكائن بشري، تواتيه الحاجة إلى أن يتسلق شيئاً ما. وحين يحقّق معك، يجلس فوق الحاجز ويبقى في هذا الوضع المتعب، وحتى لساعة إذا اقتضى الأمر، لأنه أطول منك بشبر. أو يسير على طول المصطبة ويلقي جملته المأثورة:

- أريد ألّا أرى شيئاً. أريد ألّا أسمع شيئاً؟ أنتم لا تعرفونني...

أثناء نصف ساعة الرياضة الصباحية، يتمشى فوق العشب، الذي له بالأقل مزيّةُ رفعِه عشرَ سنتمترات أعلى مما يحيطه. يلجُ الزنزانة بجلال، مثل موكبٍ ملكي، وسرعان ما يصعد على كرسي ليتمكن من أداء مهمته التفتيشية من موقع مرتفع.

إنه مثير للضحك تماماً ولكنه – مثل كلّ مغفل في جهاز حكومي تُتخذ فيه القرارات المتعلقة بحياة الناس – في الوقت ذاته بمنتهى الخطورة. وفي محدوديته يكمن أمل ما: أن يصنع حَجلاً من بعوضة. وهو لا يعرف شيئاً أبعد من مهمّة كلب الحراسة وهكذا فإن أقلّ انحراف عن النظام المفروض أمر خطير بالنسبة له، يضاهي في خطورته أهمية مهنته. أن يفبرك الاعتداءات والجرائم ضد نظام السجن، لكي يتمكن من الإخلاد إلى النوم مزهوّاً باعتقاده أنه شخص مهمّ. ومن هو الذي يفحص هنا كم من الصدق تنطوي عليه المعلومات التي يقدّمها؟

سميتونز

رجلٌ جبّار البنية ذو وجهٍ فارغ وعينين بلهاوين، كأنه إحدى كاريكاتيرات غروس عن رجال الصاعقة النازيّين وقد بعثت إلى الحياة. عمل راعياً للبقر عند الحدود الليتوانية، لكن أغرب شيء أن الحيوانات الجميلة التي كان يرعاها لم تترك عليه أي أثر من قِبَلِها. تعتبره السلطات تجسيداً للفضائل الألمانية: فهو فطن، صارم، نزيه (أحد القلائل الذين لا يطلبون الطعام من سجناء الخدمة) ولكن...

أحد الباحثين الألمان، ولا أتذكر اسمه، حَسَبَ مرةً ذكاءَ المخلوقات تبعاً لعدد (الكلمات) التي تستطيع تكوينها. وتوصَّل، كما أحسَب، إلى أنَّ أقلَّ المخلوقات ذكاءً هو القط البيتي الذي لا يستطيع أن يكوِّن أكثر من 128 كلمة. أيُّ عبقري هو هذا القطّ مقارنةً بسميتونز.

الذي ما سمعت بانكراك منه إلا أربع كلمات لا غير:

- انتبه أنت يا هذا!

مرّتان – ثلاث مرات أسبوعياً ترك واجبه مرتين، ثلاث مرات أسبوعياً مرّ بأسوء تعذيب ممكن – وانتهى الأمر دوماً على نحو سيّئ. مرةً رأيته يؤنَّب من قبل مدير السجن لأن النوافذ كانت مغلقة. وللحظة تدحرج جبل اللحم باضطراب على ساقيه القصيرتين، والرأس المحني بغباء ينحف – أكثر فأكثر وقد تهدّلت زاويتا فمه جراء الجهد العنيد لاستعادة ما سمعته الأذنان لتوّهما... وفجأة هدرت الكتلة برمتها مثل صافرة إنذار، مثيرة الهياج على طول الممرّ كله ولمْ يفهم أحد جليّة الأمر، فالنوافذ ظلّت موصَدة – عدا الدماء التي كانت تنزف من أنفَي اثنين من المعتقلين، ممَّن كانا الأقرب إلى سميتونز. لقد وجد الحلّ أخيراً.

وكان الأمر ينتهي على هذا النحو كلّ مرة. أن يضرب الناس، أن يضرب من يصادفه، أن يضربهم وإذا اقتضى الأمر، يضربهم حتى الموت – كان يفهم هذا. وهذا وحده. مرّةً دخل زنزانة يشغلها عددٌ من المعتقلين وضرب أحدهم. وسقط المعتقل، الذي كان رجلاً مريضاً، وأخذ يتلوَّى على الأرض. وكان على الآخرين كلهم أن يركعوا وينهضوا على إيقاع التشنجات إلى أن سقط الرجل المريض من الإعياء تماماً – وسميتونز يداه على ردفيه وابتسامة بلهاء على وجهه، يتطلّع بسرور إلى الحلّ الناجح الذي توصّل إليه لهذا الوضع المعقَّد.

بدائيّ لا يتذكّر إلّا أمراً واحداً من كل ما تعلّمه: أن بوسع الإنسان أن يضرب. ومع ذلك، فحتى في هذا المخلوق تحطَّم شيءٌ ما. وكان ذلك قبل شهر مضى. كان رجلان – هُوَ و«ك» – يجلسان في مكتب استقبال السجن وكان «ك» يتحدَّث عن الوضع. وقد دام الحديثُ وقتاً طويلاً – وقتاً طويلاً للغاية، قبل أن تتوهَّج في ذهن سميتونز أول ومضة فهمٍ لشيء ما.

نهض وفتح باب المكتب وألقى بصرَه بحذر على طول الممر: كان كل شيء هادئاً، والوقت ليل والسجن يغطّ في النوم. أغلق الباب، وأوصده بعناية خلفه وانهار على الكرسي ببطء:

- إذن فأنت تعتقد...؟

وأسند رأسه براحتي يديه. وضغط ثقلٌ هائل على تلك الروح الصغيرة في الجسد الجبَّار. وظلَّ على هذه الحال وقتاً طويلاً. ثم رفع رأسه وقال بيأس:

- أنت على حق. لن نستطيع الانتصار الآن...

ومنذ شهد وبانكراك لم تسمع صيحات الحرب التي كان سيمتونز يطلقها. ولم يذقْ المعتقلون الجُدد طعمَ يده.

مدير السجن

رجلٌ أميل إلى القِصَر، أنيقٌ على الدوام، بملابس مدنيّة أو ببزّته العسكرية، باذخٌ، متباهٍ، يهوى الكلاب والصيد والنساء – هذا جانب واحد من الرجل، وهو لا يخصّنا.

الجانب الآخر – وهو الجانب الذي تعرفه بانكراك عنه – نازيٌّ نموذجيّ، مُحدَثُ نعمة، جَلِفٌ وفَظّ. على استعداد لأن يضحّي بالجميع للحفاظ على نفسه. اسمه سوبا – إن كان للأسماء أية أهمية تذكر – وأصله من بولندة. ويقال إن صنعته حدّاد، لكن هذه الصنعة الشريفة مرّت عليه ولمْ تترك فيه أيَّ أثر. ودخل في خدمة هتلر منذ وقت طويل ووصل إلى مركزه الحالي بفضل طموحه الذي لا يكلّ. ودافع عنه بكلّ السبل الممكنة، متوحِّش ولا يعرف الرحمة إزاء الجميع، سجناء كانوا أم موظفين، أطفال أم مسنِّين. إنَّ المستخدمين النازيين في بانكراك لا تربطهم أيّة صداقة، ولكن ما من شخص هناك أشدّ عزلة من سوبا. وقد يكون الشخص الوحيد الذي يقدّره ويتحدّث إليه غالباً هو الموظف الصحّي للسجن فيستر. رغم ما يبدو من أنّ حتى هذه الصداقة غير متبادلة.

وهو لا يعرف إلا نفسه. ولنفسه فقط حصل على هذا المركز الخطير ومن أجل نفسه سيبقى وفيّاً لهذا النظام حتى اللحظة الأخيرة. وقد يكون هو الشخص الوحيد الذي لا يفكر بأية وسيلة أخرى لإنقاذ نفسه. فهو يعرف أن ليس هناك من سبيل آخر. إن انهيار النازية هو انهياره، خاتمة حياته الموسَرة، وشقّته الفارهة، نهاية أناقته (التي لا يخجل في سبيلها عن ارتداء ملابس التشيكيّين الذين يعدمون).

هذه هي النهاية. أجلْ...

الموظف الصحِّي للسجن

عريفُ الشرطة فيستر – من الأشكال الغريبة الأطوار في وسط بانكراك. أحياناً يبدو لك وكأنه لا ينتمي إلى هذا الوسط أبداً وأحياناً أخرى لا يمكنك حتى أن تتصور بانكراك من دونه. وإذا لم يكن في غرفة التمريض، فهو يجوس على طول الممرات بخطوات صغيرة. متمايلة، يحدّث نفسه ويراقب الأمور طيلة الوقت، طيلة الوقت. ومثل أجنبيّ لم يأتِ هنا إلا لوقت قصير ويريد أن يحمل معه أكثر ما يمكن من الانطباعات. ولكنه يعرف حقَ المعرفة كيف

يضع مفتاحه في الباب ويفتح الزنزانة بسرعة وهدوء، مثل أبرع السجّانين.

وهو يملك روحاً للنّكتة جافّة تسمح له أن ينطق بأشياء مليئة بالمعاني الخفيّة دون أن تلزمه بأي شيء في الوقت ذاته وتصعب مؤاخذتُه على كلامه. وهو يحاول التقرّب من الناس لكنه لا يسمح لأي أحد بالاقتراب منه. لا يشي بأحد، رغم أنه يرى الشيء الكثير. يلج زنزانة تكتظُّ بالدخان. فيتنشَّق بصوتٍ عالٍ:

- إحم – ويتمطّق بشفَتَيه – التدخين في الزنزانات ممنوع منعاً باتاً – ويتمطق ثانية. لكنه لا يرفع أية شكوى ضدّنا. وجهه مدلهمّ وغير سعيد باستمرار، كأنه ينوء بثقل هم كبير. واضح أنه غير راغب بأن يكون له أي شيء مشترك مع النظام الذي يخدمه والذي يطبِّب ضحاياه كل يوم. إنه لا يؤمن به، ولا يؤمن أنّ مثل هذا النظام سيبقى وهو لم يؤمِن به أبداً حتى في الماضي. ولهذا السبب لم ينقل عائلته من براتسلافا إلى براغ، رغم أن قلّةً من موظفي الرايخ يَدَعُ فرصةَ الإثراء في بلد محتلّ تفلت من يده. وهو عاجز بالقدر نفسه عن أن تكون له أية صلة مشتركة بأولئك الذين يناضلون ضدّ هذا النظام: فهو لم يصبح بعد في صفٍّ واحد مع الناس.

كان مندفعاً ومتدفقاً في عنايته لي. وهو على هذا النحو في غالب الأحيان وبوسعه أن يمنع بعناد اقتياد المعتقلين إلى التحقيق ممَّن تعرَّضوا إلى التعذيب المُضني. قد يكون ذلك لإسكات ضميره. وفي مرات أخرى، يرفض مع ذلك أن يقدّم العون وقت أن تكون هناك حاجّة ماسّة إليه. وقد يكون ذلك حين يتملّكه الخوف.

إنه نموذج للإنسان الضئيل. وحيداً، بين الخوف الذي يتحكَّم فيه والخوف ممّا هو آت. وهو يبحث عن مَخرَج. ولا يجدُ واحداً. إنه ليس جرذاً. بل فأرة ضئيلة وقعت في مصيدة.

من دون أمل.

«فلينك»

هذا الرجل لم يعد مجرَّد شكلٍ من الأشكال. ولكنّه لم يصبح بعدُ شخصاً حقيقياً، حالةً انتقالية ما بين الاثنين. إنه يفتقر إلى الوعي الواضح الذي يمكن أن يصنع منه شخصاً.

هناك في الواقع اثنان من هذا الصنف. إنسانان بسيطان، حساسان، سلبيّان في البدء، تثير دهشتهما فقط الأهوال التي وجدا نفسيهما فيها، ليتوقا بعدها إلى الخلاص من كل هذا.

وبالاعتماد على الآخرين وبالتالي البحث عن المعونة منهم، وجدا الخلاص، في المكان الصحيح، وجداه بالغريزة لا بالمعرفة. وهما يبديان لك المساعدة لأنهما ينتظران منك الشيءَ ذاتَه. ومن الصواب مساعدتُهما. سواءً الآن – أم في المستقبل – هذان الاثنان، الوحيدان من بين كل الموظفين الألمان في بانكراك، كانا في الجبهة أيضاً. هانوار، مساعد خيّاط من زنوجمو، عاد بعد فترة وجيزة في الجبهة الشرقية بقضمةِ الصقيع – في نفسه. يتفلسف قليلاً على طريقة شفيك «الحرب ليست للناس. ولا مكان لي هناك»...

هوفر، إسكافي مرح من مصانع باتا، شارك في الحملة على فرنسا وهرب من الجيش، رغم أنهم وعَدُوه بترقية. «إلى جهنم» يقول وهو يحرّك يده بإشارة احتقار، مثلما يفعل ذلك وربما منذ ذلك الوقت إزاء كل همومه الصغيرة، التي يملك منها الكثير. يشبه أحدهما الآخر، سواء في المصير أو الشخصية. لكن هوفر أقلّ جبناً وأوضح تعبيراً وأكثر نضجاً. «فلينك» – تكاد الزنزانات كلّها تتفق على هذه الكنية التي أطلقت عليه.

واليوم الذي يكون فيه في الواجب هو يوم سلامٍ في الزنزانات. فأنت تفعل ما تشاء. وإذا صرخ، يغمز بعينيه ليريك أنه لا يقصدك، فالأمر يَتعلّق بالسلطات هناك في الطابق الأرضي، التي ينبغي أن تقتنع أنه يبدي الفطنة المطلوبة. لكنه جهد لا طائل من ورائه، على أية حال فهو لا يقنع أحداً ولا يمر أسبوع واحدٌ إلا وفرض عليه واجب إضافي، بمثابة عقوبة له.

«إلى جهنم!» يلوح بيده احتقاراً ويواصل عمله بنفس الطريقة القديمة. إنه ما يزال أقرب إلى مساعد إسكافي يافع خليّ البال منه إلى سجان. ويمكنك أن تراه مع المعتقلين في الزنزانة، يلعب بقطع النقد على الجدار بفرح طاغٍ. وفي بعض الأحيان يخرج المعتقلين من الزنزانة إلى الممر ويقوم بحملة «تفتيش». ويستغرق التفتيش وقتاً طويلاً. وإذا كنت شديد الفضول، فإنك تسترق النظر إلى داخل الزنزانة وتراه عند الطاولة رأسه فوق مرفقيه. نائماً، نائماً بنشوة فرحٍ وطمأنينة. فهنا يجد أفضل حماية من رؤسائه، لأن السجناء في الممرّ يقومون بالحراسة ويبلغون عن أي خطر وشيك. إنه يريد على الأقل أن ينام أثناء الواجب، طالما كان النوم أثناء ساعات الراحة يطرده تفكيره بالفتيات اللاتي يحبّهن، فوق أي شيء آخر. هزيمة أم انتصار النازية؟ – إلى جهنم! كيف يمكن لمثل هذا السيرك أن يدوم؟ إنه لا يعتبر نفسه جزءاً منه. وهذا وحده يجعل منه شخصاً باعثاً على الاهتمام. ولكن ما هو أكثر من ذلك: إنه لا يريد أن ينتمي إليه وهو لا ينتمي إليه حقاً.

هل لديك رسالة سرّية تبعث بها إلى قسم آخر من السجن؟ «فلينك» يوصلها. هل أنت بحاجة

إلى أن تبعث برسالة إلى الخارج؟ «فلينك» سيسلّمها. هل أنت بحاجة إلى مناقشة أمر ما مع شخص ما، لتقنعه شخصياً وتنقذ بهذا أناساً آخرين؟ «فلينك» يأخذك إلى زنزانته ويقف في الحراسة – مع شيء من الفرح الماكر ينتابه لأنه قام بعمل ناجح. غالباً ما يكون عليك أن تحذّره أن يكون منتبهاً. فحين يكون في قلب الخطر فإنه قليل الانتباه له. وهو لا يدرك الأهمية الكاملة للخير الذي يفعله، وهذا ما يسهّل عليه القيام بالمزيد، ولكنه يقفُ عقبةً بوجه تطوّره.

إنه ليس بشراً بعد، ولكنه في طريقه إلى ذلك.

«كولن»

كان ذلك ذات مساء أثناء الأحكام العرفية. لقد قام السجَّان ببزّة الأس أس والذي اقتادني إلى زنزانتي، بمجرّد تفتيشٍ ظاهريّ في جيوبي.

سألَني بهدوء: ما هي قصتك؟

- لا أعرف. أخبروني أنّي سأعدَم غداً.

- هل يخيفك ذلك؟

- لقد حسبت حساب ذلك.

وللحظة مرّر أصابعه بشكل ميكانيكي على ياقة معطَفي.

- قد يفعلون ذلك. ليس غداً ربما، ربّما بعد ذلك، ربما لن يفعلوا ذلك أبداً. ولكن في أوقات كهذه... من المستحسن أن يكون المرء مستعداً.

ومرةً أخرى ران الصمتُ عليه.

- ولكن إذا أردت... ألا تريد أن تبعث برسالة إلى أحد ما؟ أو: ألا تريد أن تكتب؟ لا للحاضر، أنت تفهم، إنما للمستقبل، كيف قدّر لك أن تأتي هنا، هل اعترفَ عليك أحد، كيف كانت مواقف الآخرين... وهكذا فإن ما تعرفه لن يموت معك... هل أريد أنا أن أكتب؟ كأنما كان قد حزر أحرَّ رغبة تساورني.

بعد لحظة، عاد بقلم وورق، وأخفيتها بعناية، لكيلا تُكتَشَف خلال التفتيش. لكنني لم ألمسها أبداً.

كان الأمر رائعاً لدرجة أنّي شككت به. رائعٌ أكثر ممّا ينبغي. هنا، في بيت الظلام هذا وبعد أسابيع قليلة من اعتقالي، تعثرُ على كائنٍ إنسانيّ ببزّة أولئك الذين لا يضمرون لك إلا الصراخ والضرب، تعثر على صديق. ليمدّ يدَه إليك لكيلا تموت دون أن تترك أثراً، يساعدك على أن تبعث بكلمةٍ لمن سيأتون بعدك، يمكنك أن تتحدَّث حتى ولو للحظة، إلى أولئك الذين ستُكتَبُ النجاةُ لهم ويواصلون الحياة. الآن بالذات، لا في أي وقت آخر! في الممرات، وقد أسكرتْهم الدماء، كانوا ينادون على أسماء المحكومين بالإعدام، بصرخات فَظّة والرعب يأخذ بخناق أولئك الذين كانوا عاجزين عن الصراخ. الآن بالذات، لا في أي وقت آخر، في لحظة كهذه. لا، إنه شيء لا يصدَّق، ولا يمكن أنْ يكون حقيقياً، ولا بد أنْ يكونَ فخّاً لا غير. أيُّ قوة على الإنسان أن يملكها لكي يمدّ لك يدَه، من تلقاء نفسه وفي ظروف مثل هذه! وأية جرأة هذه!

ومرَّ ما يقرب من شهر. وانتهت الأحكام العرفية. ذَوَتْ الصيحات، وتحوَّلت اللحظات المروِّعة إلى ذكرى. ومرةً أخرى كان الوقت مساءً وكنتُ قد عدتُ لتوِّي من التحقيق. ومرةً أخرى كان السجَّان نفسُه يقفُ خارجَ الزنزانة.

- يبدو أنك نجوت، هل...

وتطلَّع إليَّ متسائلاً:

- هل سارَ كلّ شيء على ما يرام؟

فهمت السؤال جيداً. وأثّر عليَّ ذلك بعمق. ولكنه أقنعني أكثر من أي شيء آخر بأمانته. فمثل هذا السؤال لا يمكن أن يسأله إلا رجل يمتلك الحقّ الضمني بتوجيهه وأوليتُه ثقتي منذ تلك اللحظة. لقد كان رجُلَنا.

لأوّل وهلة، يبدو شخصاً غامضاً. كان يقطع الممرات وحيداً، هادئاً، مغلقاً داخل نفسه، يقظاً، مترصّداً. أنت لم تسمعْه يصرخ أبداً. ولم ترَه يضرب أحداً أبداً. الرفاق في الزنزانة المجاورة طلبوا منه مرّةً «اضربْنا أحياناً»، حين يكون سيمتونز موجوداً، لكي يراك وأنت تعمل ولو مرّة واحدة على الأقل.

وهزّ رأسه:

- لا حاجة لذلك.

إنك لا تسمعه يتحدّث إلّا بالتشيكية. وكل شيء فيه يؤكّد لك اختلافه عن الآخرين.

ولكنّك ستجد من الصعب عليك معرفةُ سبب ذلك، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك. لكنهم كانوا عاجزين عن فهم هذا الاختلاف.

وهو موجود حيثما كانت هناك حاجة له. ينشر الطمأنينة حيثما سادت الفوضى، يبثُّ العزيمة حيثما تخاذلتْ النفوس، يوجد حيثما كانت، الخيوط المقطوعة تهدّد أناساً جداً خارج السجن. وهو لا يضيع نفسه في الأمور الصغيرة، بل يعمل بعقلية منظَّمة وعلى نطاق واسع.

وليس هذا ابن اللحظة. بل منذ البدايات الأولى. وبالهدف ذاته انخرطَ في خدمة النازيّة. إنه أدولف كولينسكي – سجّان تشيكيّ من مورافيا من عائلة تشيكيّة عريقة، سجَّل نفسَه كألمانيّ ليكون بوسعه أن يصل إلى هراديك كرالوفي ويقوم بحراسة السجناء التشيكيّين لينتقل بعدئذ إلى بانكراك! ولا بد أن مثل هذا الأمر قد أثار مرارةً كبيرةً بين أولئك الذين يعرفونه. ولكن بعد أربعِ سنوات، يرسِلُ خلْفَه مديرُ السجن الألمانيّ ويلوّح قبضتَه بوجهه ويهدِّده – ولكن بعد فواتِ الأوان:

- سأنتزع روحك التشيكيّة من بدنك!

لكنه مخطئ. فليس الأمر مجرّد روحه التشيكيّة. إذ إنّ عليه أن ينتزع منه الإنسان الذي فيه، الإنسان الذي راح قدماً بوعي وإرادة إلى مكانه الصحيح لكي يناضل ويدعم النضال، والذي لم تزدْه المخاطر المستمرّة هنا إلّا صلابة.

خاصتنا

لو أنّهم صباح 11 شباط 1943 قدّموا لنا للإفطار الكاكاو بدلاً من ذلك المزيج المغليّ الأسود المعتاد المصنوع لا أدري من أي شيء، لما كنّا لاحظنا هذه الأعجوبة. لأننا هذا الصباح لمحنا لحظة بزة شرطة تشيكيّة تمر من أمام باب زنزانتنا.

مجرد لمحة خاطفة. خطوة واحدة لسروال أسود في جزمة طويلة، بدت بكمٍّ أزرق غامق ترتفع إلى القفل وتسحب الباب – ثم تلاشت الرؤية. كانت لمحة قصيرة للغاية حتى أننا بعد ربع ساعة كنا على استعداد لأن ننكر ذلك.

شرطيّ تشيكيّ في بانكراك! أيّة استنتاجات خطيرة يمكن استخلاصها من ذلك! وفي غضون ساعتين كنّا قد توصّلنا إليها. وانفتَح بابُ الزنزانة ثانيةً، وأطلَّت قبّعة شرطيّ تشيكيّ إلى

الداخل وهتفَ فمٌ كشف عن ابتسامة عريضة من دهشتنا:

- ساعة من النزهة!

لا يمكن أنْ نكون مخطئين بعد الآن، فقد بدأت بقع داكنة – بدتْ لنا تشعّ ضوءاً، تظهر وسط البزّات الرمادية الحديدية لسجّاني الأس أس في الممرّات: الشرطة التشيكيّون. ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لنا؟ وفي أية شاكلة سيكونون؟ كيفما سيكونون فإن مجرد وجودهم هنا لذو دلالة واضحة. كيف يسرِّع هذا النظامَ إلى نهايته، إذا كان في أخطر مواقعه، في الدّعامة الوحيدة التي يملكها، في جهازه القمعي، أصبح عليه أن يستخدم أناساً من الشعب الذي يريد أنْ يضطهِدَه! وأيُّ نقصٍ مروِّع في البشر يعانيه إذا كان يضعفُ حتى في ملاذه الأخير هذا، من أجل الحصول على حفنة أفراد! كمْ من الوقت يعتقد أنه سيدوم بعد هذا؟

إنهم مطمئنون، بطبيعة الحال، إلى أن هؤلاء قد يتمّ اختيارهم بصورة خاصة. وربما كانوا أسوأ حتى من السجّانين الألمان، الذين تآكلوا بفعل العادة وانعدام اليقين بالنصر. لكن مجرَّد واقع كونهم هنا علامةٌ لا تُدحَض على النهاية.

هكذا رحنا نفكّر.

إلا أنه كان هناك أكثر مما سمحنا لأنفسنا أن نفكر فيه. فالنظام لم يعد قادراً حتى على الاختيار، لم يعد لديه أيُّ شيء يوفّر له الاختيار.

في 11 شباط رأينا البزّات التشيكية لأول مرة.

وفي اليوم التالي بدأنا نتعرّف عليهم كأناس.

لقد قدم وأطل في الزنزانة، نقَل قدمَيه بشيء من الحيرة على عتبة الزنزانة ومن ثمّ مثل أيّ غلام يافع تملؤه نزوة النشاط في اللحظة التي يبدأ فيها القفز على أربعة قال بجرأة مفاجئة:

- حسناً، يا سادة، كيف هي الدنيا؟

وأجبناه بابتسامة. وردّ الابتسامة بأخرى ومن ثم بدتْ الحيرة عليه ثانية:

- لا تظنّوا السوء بنا. صدّقوني، كنا نفضّل أن نبقى نتسكّع في الشوارع على أن نقف حراساً عليكم هنا. لكنهم أرغمونا على المجيء. ولكن ربّ... ربّ ضارة نافعة... وسرّى عنه ما أخبرناه بما نعتقده بشأن ذلك وما هو رأينا فيهم. وهكذا أصبحنا أصدقاء منذ أول لحظة. كان

اسمه فيتك، امرؤٌ بسيط. طيّب القلب وكان هو أوّل من مرّ من أمام باب زنزانتنا ذلك الصباح.

الثاني هو توما، كان النموذج الحقيقي للسجّان التشيكيّ القديم – متجهّم، صخّاب، ولكنه طيب الأعماق، من ذلك الصنف الذي اعتدنا أن ندعوه في سجون ما قبل العهد الجمهوري (العصا الهرمة). لم يشعر بأيّ استغراب من عمله الجديد. على العكس، بدا على الفور وكأنه في بيته. وكان يحافظ على النظام بطريقته الخاصة، بنكاته الخشنة دوماً، وبالطريقة ذاتها التي كان يخرق بها هذا النظام: فهنا يقوم بتهريب الخبز إلى زنزانة، وهنا سيجارة، وهناك يستغرق في حوار ممتع في أي موضوع (إلا الوضع السياسي). وهو يقوم بذلك بفعل العادة، فقد كان هذا هو تصوّره لواجب السجّان وما كان ليخفي ذلك. وكان أول توبيخ يتلقّاه حافزاً له ليكون أكثرَ حذراً، إلا أنه لم يبدّل فيه شيئاً. فقد بقي تلك العصا الهرمة الطيّبة. لا يمكن للمرء أن يتجرّأ ويطلب منه القيام بعملٍ كبير. إلا أنّ بوسعك أن تتنفّس بحرّية حين يكون هناك الثالث، جاء يحوم حول الزنزانات مقطّباً، صموتاً، دون اكتراث. ولم تعطِ المحاولات الحذرة للاحتكاك به أية نتيجة.

وأبدى الأب ملاحظة بعد أسبوع من المراقبة – لم يحالفنا الحظ معه حتى الآن. إنه أكثر الثلاثة خذلاناً لنا – أو أكثرهم فطنة.

آمنت على قوله، بشيء من المعارضة على الأرجح، لأن رأيَين في الأمور الثانوية هي توابل الحياة في زنزانة.

بعد أسبوعين، بدا لي أن هذا الكائن الصموت قد غمز بعينيه بحيوية أكبر لحدٍّ ما. ورددْت على هذه الحركة الملتبسة التي لها في السجن ألفُ معنىً، ولكن دون جواب. لا بد أنّي كنتُ واهماً.

ولكن كل شيء اتّضح في غضون شهر. وحدثَ الأمر فجأةً، مثلما تنبثق فراشةٌ من الشرنقة. فقد انفجرت الشرنقة – وظهر منها كائنٌ حيّ. ولكنّه لم يكن فراشةً. بل كائناً إنسانياً.

- أنت تقيم نصباً...

كان الأب يردّد علَيَّ ذلك بخصوص سكيتشات الشخصيات التي كنت أكتبها. أجل، لقد أردت ألّا تُنسى ذكرى هؤلاء الرفاق الذين ناضلوا بتفانٍ وإقدام، خارج السجن وفيه، ودفعوا حياتهم ثمناً. ولكني أردت كذلك ألّا تُنسى ذكرى الأحياء الذين ساعدونا بوفاء لا يقلّ عن ذلك وبجرأة لا تقلّ عن تلك في أقسى الظروف. أريد أشخاصاً من مثل كولينسكي وهذا

الشرطي التشيكيّ – أن يظهروا من ظلمة ممرّات بانكراك إلى نور الحياة، لا من أجل مجدهِم الشخصيّ، بل كقدوةٍ للآخرين. فالواجبات الإنسانية لا تنتهي عند حدود هذا النضال. فكون المرء إنساناً، سيتطلّب منه على الدوام روحاً مفعمةً بالبطولة حتى ذلك الوقت الذي يصبح فيه كلُّ الناس بشراً حقيقيّين.

وهذه في الواقع مجرّد قصّةٍ مقتضبة عن عريف الشرطة ياروسلاف هورا، ولكنك ستجد فيها تاريخَ إنسانٍ حقيقيّ.

رادنيسكو. بقعة نائية في هذا العالم. ريف جميل. كئيب وفقير. والده خزّاف. حياة قاسية. كدحٌ طاحن حين يكون هناك عمل، وفاقةٌ وقت البطالة التي تستوطن المكان. وحياة كهذه تضطر المرء إما إلى أن يركع أو يرفع رأسه ويتطلّع إلى عالم أفضل، الإيمان به والنضال في سبيله. واختار والده السبيل الثاني وأصبح شيوعياً.

كان الفتى يارو بين راكبي الدراجات البخارية في موكب الأول من أيار، يربط شريطاً أحمر حول إطارات دراجته. ولم يتركه هناك. فقد حمله معه، لا يدري بالضبط أين، ولكنه كان في مكان ما من أعماقه، حين ذهب يتدرّب في ورشة الخراطة، في أول عملٍ حصل عليه في مصانع شكودا.

الأزمة، البطالة، الحرب، الأمل بالحصول على عمل، الخدمة في الشرطة. لا أدري بأي شكل كان الشريط الأحمر يعمل في داخله آنذاك، ربما كان مطويّاً في مكان ما، موضوعاً على الرفّ أو ربما كان حتى نصف مَنسيّ، لكنَّه لم يَضِعْ. ذات يوم جاؤوا به للخدمة في بانكراك. وهو لم يأتِ من تلقاء نفسِه، مثل كولينسكي، وقد صمَّم على القيام بمهمّة ما سلَفاً. لكنه سرعان ما أدرَك مهمّته منذ أول وهلة أطلّ فيها داخل زنزانة، لقد انفتح الشريط في أعماقه.

يفتش الميدان، بقدر قواه، وقد ارتسمت على قسماته المدلهمّة أمارات التفكير العنيد بالمكان الذي ينطلق منه في عمله وأفضل سبيل لذلك. إنه ليس سياسيّاً. فهو واحد من أبناء الشعب البسطاء. لكنه يملك خبرة والده. يملك نواةً صلبة يراكم حولها إصراره، فيقرّر. ومن الشرنقة الغائمة ينفلقُ كائنٌ إنسانيّ.

وهو إنسانٌ رائع من الداخل، ذو نقاء نادرٍ إحساسيّ، خجول، ولكنه رجولي في الوقت ذاته، ينفّذ كلّ ما هو ضرورة، مهما كانت المخاطر التي ينطوي عليها. الأشياء الصغيرة والكبيرة مهمّة على حدّ سواء. وهو ينفّذ المهمات الصغيرة والمهمات الكبيرة ويعمل بتكتّم وهدوء

وحكمة، ولكن من دون وَجَل. وهو يؤدّي ذلك على نحو طبيعيّ، بفضل روح المبادأة النموذجية التي يتحلّى بها. ولا بدَّ أنّ الأمر كذلك حقاً – إذن فما جدوى الكلام عنه؟

هذا هو في الواقع كلُّ شيء. هذه هي القصّة الكاملة لأحد البشر ممّن يستطيع اليوم أن يفخر بأنه أنقذ العديد من الحيوات الإنسانية. وهؤلاء الناس يعيشون ويعملون خارج السجن لأنّ إنساناً واحداً في بانكراك نفّذ واجبه ككائن بشري. إنهم لا يعرفونه وهو لا يعرفهم، تماماً مثلما لا يعرفون كولينسكي. وأودُّ أنا أنْ يعرفوا بعضهم بعضاً فيما بعد على الأقل. لقد وجدَ هذان الإثنان هنا الطريق أحدهما إلى الآخر بسرعة. وضاعف هذا من منفعتهما. تذكروهم كقدوة، قدوة للكائن الإنسانيّ الذي يضع فكرة وأولاً وقبل كل شيء ضميرَه، في الموضع الصحيح.

الأب سكوريبا

لو صادفتهم ثلاثتهم معاً، لرأيتَ صورةً حيّة للأُخوّة: البزّة الرمادية_الحديدية لسجّان الأس أس – كولينسكي. بزّة الشرطي التشيكي الغامقة – هورا. والبزّة الفاتحة والمقبضة معاً لسجين الخدمة – الأب سكوريبا. لكنّك لا تراهم معاً إلا نادراً، نادراً جداً، لنفس السبب الوجيه وهو أن الواحد ملكٌ للآخر.

تسمح أنظمة السجن (فقط للسجناء الموثوق بهم، ذوي الانضباط، المنعزلين عن الآخرين تماماً) بالعمل في الممرّات، في إدامة نظافة المكان وتوزيع الطعام.

هذا هو نص القانون، نصّ ميت، مجهَض ويُرثى له، ذلك أن سجناء خدمةٍ من هذا النوع غير موجودين ولم يوجدوا أبداً وخاصة في سجون الجستابو. وعلى العكس، فإن سجناء الخدمة هنا هم مجسّات تمدّها من الزنزانات منظّمة السّجن لتضعها قريباً من العالم خارج السجن وتمكّنها أن تعيش وتتّصلَ بمن هم على صلة بها في الخارج. وما أكثر سجناء الخدمة الذين دفعوا حياتهم ثمناً لتعليمات تمّ كشفها أو رسالة سرّية ضبطت لديهم. لكنّ قانون الحياة الجماعية للسّجن لا يتساهل إزاء أولئك الذين يُطلَبُ منهم مواصلةُ عملِ الّذين سقطوا رغم المخاطر التي تُحيق به. عليك إما أن تندفع بجرأة أو تتردّد وَجَلاً – ولكنك في الحالتين معاً لن تفلت منها. بوسعك فقط أن تفسد الكثير جرّاء الخوف وقد تخسر حتى كل شيء، تماماً كما في كلّ أشكال العمل السرّي.

وهذا أيضاً عملٌ سرّي مرفوع إلى أقصى درجات الخطورة: فهو بين أيدي من يريدون تدميرَه

مباشرةً وأمام أعين السجَّانين، في المكان الذي يحدّدونه. في اللحظات التي يختارونها وفي الظروف التي يخلقونها. وكل ما تعلّمته خارج السجن، ضئيلُ القيمة هنا. وإنْ كان لا يتطلّب منك أقلّ منه.

هناك أساتذة في العمل السرّي خارج السجن. وهناك أساتذة في العمل نفسه بين سجناء الخدمة. إنّ الأب سكوريبا أستاذ من هذا النوع. متواضع، بسيط، هادئ المظهر، لكنه حَرِك مثل سمكة. السجانون يثنون عليه: انظروا إليه كيف يتفصَّد عرقاً. أيّ رجلٍ أمين هو، ينصرف إلى أداء واجباته لا غير ولا تسوّل له نفسه القيام بما هو ممنوع. على سجناء الخدمة أن يتخذوه قدوة!

أجل، على سجناء الخدمة أن يتخذوه قدوة! إنه قدوةٌ حقاً لسجين الخدمة بالمعنى الذي يفهمُه السجين. إنه أجرأُ مِجَسٍّ في منظَّمة السجن وأرهفُه.

إنه يعرف نزلاء الزنزانات، كل نزيل جديد، من أوّل وهلة، سبب وجوده هنا، بمن يتصل، طباعه وطباع من يسكن بينهم. وهو يدرس (الحالات) ويحاول الكشف عن أسرارها. وهذا مهمّ إذا كان عليه أن يقدم المشورة وينقل الرسائل دون خطأ. إنه يعرف العدوّ ويراقب بانتباه كلّ سجّان، أطواره، جوانب الضعف والقوّة فيه، من أيّ ناحية ينبغي الحذر منه بصورة خاصة، كيف يمكن الانتفاع منه، كيف يمكن تخدير يقظته وتضليله. إن الكثير من الشخصيات المتميّزة التي كتبتها إنما كان الأب سكوريبا هو الذي أبداها في الأصل. فهو يعرف الجميع هنا وبوسعه أن يرسم تخطيطاً لشخصية كلّ واحد منهم على حدة. وهذا مهمّ إذا كان عليه أن يؤمِّن لنفسه حريّة التحرّك في الممرات والمقدرة المضمونة على العمل بكفاءة.

وهو قبل كل شيء يعرف واجبه. إنه شيوعيّ يدرك أنه لا يوجد هناك مكان يمكن فيه له أنْ يكفَّ عن كونه شيوعيّاً، يطوي ذراعيه و(يتوقّفَ عن العمل).

وبوسعي حتى أن أقول إنه هنا، حيث الخطر في ذروته والاضطهاد في ذروته، وجد مكانه الحقيقي. هنا تطوَّر حدَّ النضج.

وهو مرن. ففي كل يوم وكل ساعة تنشأ أوضاع جديدة، تتطلّب أساليب جديدة. وهو يجدها بذكاء وسرعة، وليس أمامه إلا ثوانٍ معدودات. وهو يطرقُ باب الزنزانة، يصغي إلى رسالة معدَّة ثم يوصلها بدقَّة ووضوح إلى الطرف الآخر من الممرّ، قبل أن تنزل دورية أخرى من

الأعلى إلى الطابق الأول. إنه حذر، يتمتع بحضور بديهة لا نظير له. لقد مرّت من يديه مئات الرسائل السرّية، ثمّ لم تكتشف واحدةٌ منها، ولا أثارت حتى أيّ شكّ.

وهو يعرف أين وكيف تدوسُ الجَزمَة وأين ينبغي بثّ العزيمة، ومتى يجب تقديم تقريرٍ دقيق عن الوضع خارج الزنزانات ومتى تستطيع نظرته الأبوية أن تمنح القوّة إنساناً يوشك أن ينهار من اليأس وأين يمكن بقليل من الخبز الإضافي أو مغرفة للحساء أن توقف الوضع الصعب تماماً لـ(مجاعة السجن) وهو يعرف هذا ويدركه برهافة حسّه الرائعة وخبرته العميقة ويتصرّف على هدى ذلك.

إنه مناضلٌ قويّ لا يعرف الوَجَل. إنسانٌ لا تشوبه شائبة. هذا هو الأب سكوريبا. أودّ منك يا مَن ستقرأ هذا ذات يوم أنْ ترى فيه لا الأب سكوريبا وحدَه، بل ذلك النموذج الرائع كلّه لسجناء الخدمة الذي كان قادراً على تحويل العمل، الذي كان المضطهِدون يرغِمون عليه من أجلِ مصالحهم، إلى مصلحة المضطهَدين [بفتح الهاء] كُلِّية، إنّ الأب سكوريبا رجلٌ متفرِّد، لكنّ نموذَجَه موجودٌ عند مختلفِ الناس. بشرٌ ذوو خصائص بشرية متباينة، لكنها لا تقلّ عظمةً عن ذلك، في بانكراك وقَصر بيتشيك على حدّ سواء. بودّي لو رسمت لوحاتهم العديدة. لكن وا أسفاه، فلم يبقَ أمامي إلّا ساعاتٌ قليلة، قليلة. لا تكفي حتى (للأغنية التي أنشدت باقتضاب وجيز رغم حياتنا التي نحياها طويلاً). على الأقل، إذن، قليل من الأسماء، وبعض الأمثلة وهي أبعد من أن تكون، بالتأكيد، كل من ينبغي علينا أن نتذكرهم:

الدكتور ميلوش نيدفيد، إنسان رائع، نبيل، دفع حياته ثمناً في أوشفيتز للعَون الذي كان يقدّمه لرفاقه السجناء يومياً.

إرنوست لورينز، الذي أعدمت زوجتُه لأنه رفض أن يخون رفاقه والذي أعدم أيضاً بعد عام واحد. وضحّى بنفسه من أجل أن ينقذ رفاقه المناضلين في غرفة 400 والمنظّمة كلّها.

فاسيك الرائع، ذو البديهة الحاضرة الذي لا يغلب وآنكا فيكوفا الانطوائية، المفعمة بنكران الذّات والتي أعدمت أثناء الأحكام العرفية. الممتلئ حيويّةً سيرنغر «أمين المكتبة» الدائم المرح، الحاذق، ذو العقل الذي لا يكلّ في ابتكار أساليب جديدة، وبيليك الفتى الرقيق...

مجرد أمثلة، مجرد أمثلة لأشخاص بهذا القدر أو ذاك، لكنهم أشخاص على الدوام، لا مجرَّد أشكال.

الفصل الثامن
شيء من التاريخ

9 حزيران 1943

أمام زنزانتي يتدلّى حزام. حزامي، إشارةُ الرّحيل، الليلة ينقلونني إلى الرايخ لمحاكَمتي وما أشبه، إن الزمن ينهش بجوعٍ كاسر آخرَ شريحةٍ من حياتي القصيرة. لقد مضت أربعمائةٍ وأحدَ عشرَ يوماً في بانكراك بسرعةٍ غير مفهومة. كم من الأيام بقيَتْ لي؟ وأين؟ وأيّ منها بقيَتْ؟

لن تتاحَ لي الفرصة بعدُ للكتابة، وهكذا إذن، فهذه آخر إفادةٍ أدلي بها. شيءٌ من التاريخ، لا ريب أنّي شاهدُ العيان الأخيرُ عليه.

في شباط 1941، اعتُقِلَتْ اللجنة المركزية للحزب الشيوعيّ كلّها، بما في ذلك القيادة الاحتياطية التي أُعِدَّت لمثل هذه اللحظات الشرّيرة. وحتّى الآن لمْ يتّضح تماماً كيف أمكن أن تنزل مثل هذه الضربة القاسية المروّعة بالحزب. ربّما سيسلّط ضبّاط الجستابو ذات يوم الضوء على هذه المسألة عندما يجري التحقيق معهم في المستقبل. وقدْ ذهبتْ كلُّ جهودي لمعرفة حقيقة الأمر أدراج الرياح، حتى عندما كنت واحداً من سجناء الخدمة. إنّ جانباً من القضية لا بدّ أن يكون ذا علاقة بالتخريب ولكن لا بد أنْ يكون ضعف اليقظة الجانبَ الآخر لها. عامان من العمل السرّي الناجح خَدَّرَا الرفاق لحدٍّ ما وأضعَفَا يقظَتهم. لقد نَمَت الحركة السرّية واتّسعت وانضمّ إليها دون انقطاع رفاقٌ جُدُد، وبضِمنِهم أولئك الذين كان ينبغي إبقاؤهم بعيدين والاستفادة منهم في أغراض أخرى. وتضخّم الجهاز الحزبيّ وتعقّد بدرجةٍ كبيرة بحيث لم يعدْ بالإمكان السيطرة عليه. ولقد أصبح واضحاً أن الضربة التي نزلت بقيادة الحزب قد تمّ التحضير لها منذ وقت بعيد وجاءت في لحظة كان فيها كل شيء قد أُعدّ للهجوم على الاتحاد السوفياتي. في البداية لم أعلم بالمدى الكامل للاعتقالات التي جَرتْ. وبقيتُ بانتظار الاتصال المعتاد. ولكن هيهات. وبعد شهرٍ فقط اتّضح أنّ أمراً جليّاً قد وقع وأنّ علَيَّ ألّا أكتفي بالانتظار وحده. وبحثت بنفسي عن صلة. كما بحث عنها آخرون. وكان أول شخصٍ عثرت عليه هو هونزا فيسكوسيل، مسؤول منظمة بوهيميا الوسطى. كان رجلاً يمتاز بروحٍ المبادرة وقد أعدّ بعض المواد للنشر في (رودي برافو) حتى لا يبقى الحزب دون جريدَته المركزية. وكتبت أنا المقال الافتتاحي وكما اتفقنا على نشر المواد (التي لم أرَها)

كجريدة بمناسبة أيار وليس بمثابة عددٍ من أعداد (رودي برافو)، بسبب أن هذه الأخيرة كانت قد صدرت بالفعل في طبعة طارئة.

ومن ثم بدأت شهور من عمل الأنصار. وإذا كان الحزب قد تعرّض إلى ضربة قاسية، فإنها لم تستطع أن تقتله. وأخذ مئات الرفاق الجدد على عاتقهم المهمّات المتبقية وتوافد رجالٌ ونساءٌ جُدُد عازمين على مَلْء الأماكن الشاغرة التي تركها القادة الذين وقعوا في قبضة العدوّ ولم يسمحوا لأسس المنظمة أن تنهار أو تغرق في السلبية. ومع هذا فقد بقي مركز الحزب مفقوداً. وخلال عمل الأنصار، كان الخطر الداهم هو ألّا تتوفر في اللحظة الحاسمة – لحظة الهجوم المتوقَّع على الاتحاد السوفياتي – وحدةٌ كاملة في العمل. وفي (رودي برافو) – التي كانت ما تزال تصدر على أساس عمل الأنصار والتي أصبحتُ مسؤولاً عنها – تعرَّفتُ على مساعدٍ سياسيٍّ متمرِّس. ففي العدد الخاص الذي أصدرناه بمناسبة الأول من أيار، والذي لم يكن لسوء الحظّ بالجودة التي كنا نتوقّعها، رأى آخرون أنه كان هناك صوتُ شخصٍ يمكن الاعتماد عليه، يجيب علينا، بدأنا نبحث أحدُنا عن الآخر. وكان بحثاً في غابة عميقة. كنا نسمع صوتاً ما، فنسعى خلفه – ومن ثمّ نسمعه يتردّد في الجانب المعاكس تماماً. لقد أصبح الحزب، بعد الخسارة الجسيمة التي نزلت به، أكثر حذراً ويقظة. وإذا كان هناك شخصان في الجهاز المركزي يريدان أن يتّصلا ببعضهما، فإن عليهما أن يشقّا طريقهما عبر دغل من الصعوبات والاختبارات التجريبية التي يضعها أحدهما بوجه الآخر والموضوعة بالطبع من قبل آخرين ممن يذودون عن اتصالاتهم. لقد كان كل شيء معقّداً لدرجة أنّي لم أعرف من كان الشخص الذي في الجانب الآخر، ونفس الشيء بالنسبة له، لأنه لم يكن يدري من هو الذي يبحث عنه. واكتشفنا أخيراً قاسماً مشتركاً – رجلاً رائعاً هو الدكتور ميلوش ليدفيد، الذي أمّن أول اتصال لنا. وساعد على هذا شيءٌ من الحظّ أيضاً. ففي منتصف حزيران 1941، مَرِضتُ فأرسلت ليدا لتطلب منه القدوم لمعالجتي. جاء على الفور إلى شقة آل باكس – وهناك وضحت الأمور، فقد طلب منه هو أيضاً البحث عن (الآخر)، ولكن لم تكن لديه أدنى فكرة أنه إنما كنْتُ أنا بالذات. وبالعكس، فقد كان مثل بقية الآخرين في الجانب الآخر، مقتنعاً بأنّني معتقل وربما كنت قد متّ بالفعل.

في 22 حزيران 1941، قام هتلر بغزو الاتحاد السوفياتي. وفي الأمسية نفسها، أصدرنا، فيسكوسيل وأنا، بياناً عن مغزى هذا الحدَث بالنسبة لنا. وفي 30 حزيران، جرى أول لقاءٍ لي بالرجل الذي كنت أبحث عنه منذ فترة طويلة. قدِم إلى الشقة التي حدّدتها إذ كان يعرف بمن سيلتقي. أما أنا فلم أكن أعرف ذلك بعد. كانت ليلةً من ليالي الصيف. وخلال النافذة

المشرعة كان عبير السّنط يتسلّل إلى المكان. لقد كانت لحظة مناسبةً للقاء عاشقين. عتَّمنا النافذة وأشعلنا النور وتعانقنا. لقد كان هونزا زيكا. إذن، فبعد كل الذي حدث، لم يُعتقَل جميعُ أعضاء اللجنة المركزية في شباط 1941. كان زيكا العضو الوحيد الذي أفلت من ذلك. لقد عرفته فترة طويلة وكنت مولعاً به منذ أمد بعيد. رجلٌ بدينٌ، قصير، دائم الابتسام فيه شيء من روح العمومة الدائمة – وهو صلبٌ، لا يساوم، حازم وحاسم في العمل الحزبي. وبالنسبة له لم يكن يعرف أو يرغب أن يعرف أيَّ شيءٍ خارجَ واجبِه. وكان على استعداد لبَذل أيّ شيء في سبيل تنفيذ هذا الواجب. كان يحبّ الناس ومحبوباً منهم، لكنه لم يشترِ محبَّتَهم أبداً بالتغاضي عن أخطائهم.

وتوصّلنا إلى التفاهم في دقائقَ معدودات. وبعد أيام قلائل، عرفت العضو الثالث في القيادة الجديدة، الذي كان على اتصال بزيكا منذ أيار: هونزا تشيرني. رجلٌ وسيم، طويلُ القامة، رائع في علاقته بالناس، قاتل في إسبانيا ثم عاد عبر ألمانيا النازية خلال الحرب وقد استقرَّتْ في رئته رصاصة – كان فيه على الدوام شيءٌ من الجندي مع خبرة غنيّة بالعمل السرّي، موهوب وذو قدرة لا تنضب على المبادرة.

وربطتنا شهورٌ من النضال الشاقّ بروح رفاقية مدهشة. ثلاثتنا معاً. يكمل الواحد مِنّا الآخر بخصائصنا وقدراتنا. زيكا – المنظِّم، ذو الروح العملية، المدقِّق في اهتمامه بالتفاصيل والذي لا يسمح لنفسه أن يضلِّله الإسهاب، يتعمّق في كلّ خبرٍ صغير حتى يكشف معناه الحقيقي، بفحص كلّ اقتراح من جميع جوانبه. رقيقُ القلب ولكنّه حازمٌ في متابعة تنفيذ كلّ قرار، وتشيرين – مسؤول التخريب والإعداد للمقاومة المسلّحة، يفكّر بلغة عسكرية، مبتكِر، جريء في خططه، يفيض حيوية، لا يكلّ، سعيدٌ في البحث عن أساليب جديدة وأناسٍ جدد، وأنا – المحرِّض الدعائي، الصحفيّ، المعتمد على حماستي الفطرية، حالمٌ إلى حدٍّ ما، مع روحِ الانتقاديّة من أجل التوازن.

لقد كان توزيعُ المهمّات بالطبع توزيعاً للمسؤوليات أكثر منه توزيعاً للعمل. فقد كان على كل منّا أن يهتم بكل شيء وأنْ يعتمد على مبادرته الخاصة وحينما كانت الحاجة تستدعي ذلك. لم يكن عملاً سهلاً. إنَّ الجرح الذي نزل بالحزب في شباط لم يلتئم بعدُ كليّاً. لقد مُزِّقَتْ المنظمات شرَّ تمزيق. وفي أماكن معينة وقعت قطاعات بأكملها وفي أخرى سلمت قطاعات بأكملها ولكن لم يكن هناك من سبيل للوصول إليها – منظّمات برمّتها، معامل برمّتها وحتى مناطق برمّتها، ظلّت معزولة لشهور قبل أن يعاد الاتصال بها وكان علينا أن نعتمد

على الجريدة المركزية. تصل إليهم وتوصَل إليهم عبرها التوجيهات العامة. ولم تكن هناك شقق متوفّرة – وما عاد بوسعنا استخدام الشّقق السابقة التي ربما كانت محظورة بعدها. وباختصار، لم يكن لدينا مال وكانت الصعوبات تتفاقم في تأمين الطعام لمناضلي العمل السرّي وكانت هناك أشياء كثيرة ينبغي البدء بها من الأول... وكلّ هذا في وقتٍ لم يكن بوسع الحزب أن يقتصر فيه على إعادة بناء نفسه والاستعداد فقط. بل في وقت كانَ على الحزب أن يلعب فيه دوراً مباشراً في النضال وينظّم الجبهة الداخلية ضدّ المحتلّين ويقودَ حرباً مصغَّرة ضدَّهم. لا بمجرّد قواه الخاصة. بل بقوى الشعب كله. في سنوات الإعداد، 1939 – 1941، كان الحزبُ يعمل بسريّة تامّة، مختفياً لا عن أعين الشرطة الألمانية وحسب، بل عن الشعب كذلك. أما الآن، فبعد خسائره الفادحة، كان على الحزب أن يقوّي صفوفه ويستكمل عمله السري ضدّ المحتلين، ولكن في الوقت ذاته الذي كان عليه أن يخرج إلى الشعب، كان عليه أن يقيم الصلات بالناس اللاحزبيّين، أن يتوجّه إلى الشعب كلّه، يفاوض كلَّ من كانَ مصمِّماً على النضال في سبيل الحرّية ويجرّ إلى النضال مَن كانَ متردّداً بعد من أجل أن يلعب الجميع دوراً نشيطاً في هذه المعركة الحاسمة.

في مطلع أيلول 1941، أصبح بإمكاننا القول بأننا لم نعد ترميم العديد من المنظمات المتضرّرة بشدة – وا أسفاه! فقد كان هذا أمراً متعذّراً حينها – إنما أصبح لدينا مرة أخرى نواة منظمة على أساس صلب، قادرة جزئياً على الأقل أن تنفذ المهمات الكبرى لوحدها. وظهر على الفور تأثير الحزب. واشتدت التخريبات والإضرابات في المصانع وما إن حلّت نهاية أيلول حتى نصبوا هيدريش علينا.

ولم تستطع الفترة الأولى من الأحكام العرفية أن تحطّم المقاومة المتصاعدة، ولكنها أبطأت منها وأنزلت بالحزب ضرباتٍ جديدة. وقد أصيبت في الواقع منظمة براغ ومنظمة الشبيبة. وسقط مناضلون جدد وكانوا ذوي قيمة لا تقدَّر للحزب: يان كريشي، ستانسل، ميلوشَ كراشي وكثيرون غيرهم.

ولكن بعد كل ضربة كنا نرى ثانيةً كيف يستحيل القضاء على الحزب. مناضل يسقط – وإذا لم يكن بالإمكان أن يحلّ آخرُ محلَّه، فإنّ اثنين أو ثلاثة يأخذون مكانه. وعلى أعتاب العام الجديد كانت منظَّماتنا قد بنيت بناءً متماسكاً، رغم أنها لم تغطِ كلَّ شيء وما زالت بعيدةً أن تصل إلى السِّعة نفسها التي كانت عليها في شباط 1941. ولكنها كانت برغم ذلك قادرة على تنفيذ مهمات الحزب في المعارك الحاسمة. وقسم العمل بيننا جميعاً. ومع هذا، فإن شرف

هذا ليعود أولاً وقبل كل شيء إلى هونزا زيكا.

لا حاجة بي للحديث عمّا فعلتْه الصحافة، فهناك ما يكفي للتّدليل على هذا في الغرف العليا والسّراديب وفي الأرشيفات السرّية للرّفاق.

وكانت جريدتنا توزَّع على نطاق واسع ولم تكن تُقرأ في الحزب وحده. بل خارج الحزب كذلك. وكانت تصدر بطبعات عديدة من (الورشات) السرّية المستقلة الكثيرة العدد (على آلات استنساخ). وكانت هذه الطبعات منفصلة الواحدة عن الأخرى وكان بعضها يصدر مطبوعاً. وكانت الأعداد توزع بانتظام وسرعة، مثلما كان الوضع يتطلب ذلك. وعلى سبيل المثال، فقد وصل الأمر العسكري للرفيق ستالين الصادر يوم 23 شباط 1942 إلى قرائنا مساء 24 شباط. وقام الطبّاعون بعملٍ ممتاز وكذلك (ورشة) الأطباء وبصفة خاصة (ورشة فوخس – لورينز) التي كانت تصدر أيضاً صحيفتَها الإخبارية الخاصة (العالم ضدّ هتلر). وكنت أنا أتولى جميعَ الشؤون الأخرى بنفسي لأتفادى تعريضَ المزيد من الكوادر إلى الخطر. وكان هناك بديل حاضر ليأخذَ محلّي في حالة اعتقالي. وقد شرع بالعمل عند اعتقالي وما زال يعمل حتى اليوم.

وكان الجهاز الذي بنيناه من أبسط ما يكون، لكي يتمّ تشغيل أقلّ عددٍ ممكن من الأشخاص في المهمة الواحدة. وكسرنا السلسلة التنظيمية الطويلة التي كانت، كما برهنت على ذلك تجربة شباط 1941، خطراً على الجهاز الحزبي لا حمايةً له. صحيح أن هذا يعني خطراً أكبر لكلّ واحدٍ منا على انفراد، لكنه كان أكثر سلامة للحزب، إذ لن يكون هناك تكرارٌ لتلك الكارثة التي انقضَّتْ على الحزب في شباط.

وبسبب ذلك كانت اللجنة المركزية، التي اكتملت بعضوٍ جديد، قادرةً بهدوء على مواصلة عملها بعد إلقاء القبض علَيَّ. ولم تكن حتّى لأقرب رفاقي في التنظيم أدنى فكرة عن ذلك.

اعتقل هونزا زيكا ليلة 27 أيار 1942، ومرة أخرى كانت الصدفة السيئة هي السبب لا غير. وكان ذلك في الليلة التي تلت محاولة اغتيال هيدريش، حين انطلق كامل جهاز المحتلّين من عِقاله وحوصر الناس في كل مكان من براغ. واقتحم الجستابو الشقّة التي كان يختفي فيها زيكا في ستريسوفنش آنذاك. كانت أوراقه لا غبار عليها وكان من الممكن أن يفلت من قبضتهم بالتأكيد. ولكنه لم يكن راغباً في تعريض عائلة طيّبة إلى الخطر فحاول أن يهرب من إحدى نوافذ الطابق الثاني، إلا أنه سقط أثناء محاولته واقتيد إلى مستشفى السجن وهو

مصاب إصابة خطيرة في عموده الفقري. ولم تكن لديهم أيّة فكرة عن هويّة الشخص الذي وقع في قبضتهم، إلا بعد 18 يوماً، حيث استطاعوا أن يشخّصوه عن طريق مقارنة الصور الفوتوغرافيّة، واقتادوا الرجل المحتضِر إلى قصر بيتشيك للتحقيق وهنا تقابلنا معاً لآخر مرّة، عندما واجهونا الواحد بالآخر. تصافحنا، وابتسم لي ابتسامته العريضة، الحبيبة وقال:

- وداعاً يا يوليوس!

وكان ذلك كل ما سمعوه منه. لم ينطق بكلمة واحدة أخرى أبداً. وبعد أن ضربوه قليلاً غاب عن الوعي وفي غضون ساعات قليلة فارق الحياة. لقد علمتُ باعتقاله حوالي 29 أيّار. وقد عمِلَتْ المجسّات جيّداً. وبفضلهم تقريباً توصَّلتُ إلى اتفاق معه بما ينبغي علَيَّ أن أفعله. وبعدئذ حظي هذا بالموافقة التامّة لهونزا تشيرني. وكان هذا آخرَ قرارٍ لنا.

وفي صيف 1942 اعتُقِلَ هونزا تشيرني. ولم يكن هذا نتيجة الصدفة، بل بسبب التسيُّب الصارخ من جانب يان بوكورني الّذي كان على اتصال به. ولم يتصرّف بوكورني كما ينبغي على كادر قيادي أن يتصرّف. وبعد ساعات قلائل من التحقيق، بالتأكيد تحقيق مريع، ولكن ماذا كان يتوقع؟ بعد ساعات من التعذيب انهار واعترف على الشقّة التي كان يلتقي فيها بتشيرني. ومن هناك قاد الأثر إلى هونزا الذي وقع في قبضة الجستابو بعد أيام قلائل.

وتمَّت مواجهتُنا الواحد بالآخر، حالَ إلقاء القبض عليه.

هل تعرفه؟

- كلا.

لقد نطقنا معاً بالردّ نفسه، وبعدها رفض أن ينطق بكلمة واحدة، وأنقذه جرحه القديم من التعذيب الطويل، إذ غاب عن الوعي سريعاً وقبل أن يعاد إلى التحقيق ثانية، كانت معلومات دقيقة قد أوصلت إليه فاتخذ الاحتياطات الضرورية.

ولم يحصلوا على أي شيء منه. وأبقوه رهن الاعتقال وانتظروا طويلاً على أمل أن يتوفّر دليلٌ جديد يرغمه على الكلام. ولكن هيهات.

ولم يبدّل السجن أي شيء فيه: أنيق جذل ومقدام، كان يدل الأحياء على آفاق جديدة، رغم أنه نفسه لم يكن ينتظر إلا الموت.

نقلوه من بانكراك فجأةً نهاية نيسان 1943 إلى مكان أجهله. هذه الطريقة المباغتة التي كان

الناس يختفون بها دوماً تنطوي على شيء من الشؤم. قد أكون على خطأ. لكني لا أحسب أننا سنرى بعضنا ثانية أبداً.

لقد حسبنا حساب الموت دوماً. وقد كنا نعرف دوماً أننا حين نقع في قبضة الجستابو، فمعنى ذلك أن النهاية حانت. وقد حكم هذا كلَّ تصرفاتنا، حتى هنا.

اقترب دوري من نهايته. هذه النهاية التي لم أكتبها بعد. وهو أمرٌ لا أعرفُه بعد. فهو لم يعدْ دوراً. بل الحياة.

وفي الحياة ليس هناك متفرّجون.

الستارة تنسدل.

أيّها الناس، لقد أحببتُكم كونوا يَقِظِين!

1943/6/9